(العدد الثالث عشر) • محرم - صفر - ربيع الأول ١٣٩٨ هـ
يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨ م
مجلة
المسلم المعاصر



المسلم المعاصر

فصلية فكرية تعالج شؤون الحياة المعاصرة فى ضوء الشريعة الإسلامية

(العدد الثالث عشر) • محرم - صفر - ربيع الأول ١٣٩٨ هـ

يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨ م

صاحب الإمتياز ورئيس التحرير المسؤول

الدكتور جمال الدين عطية

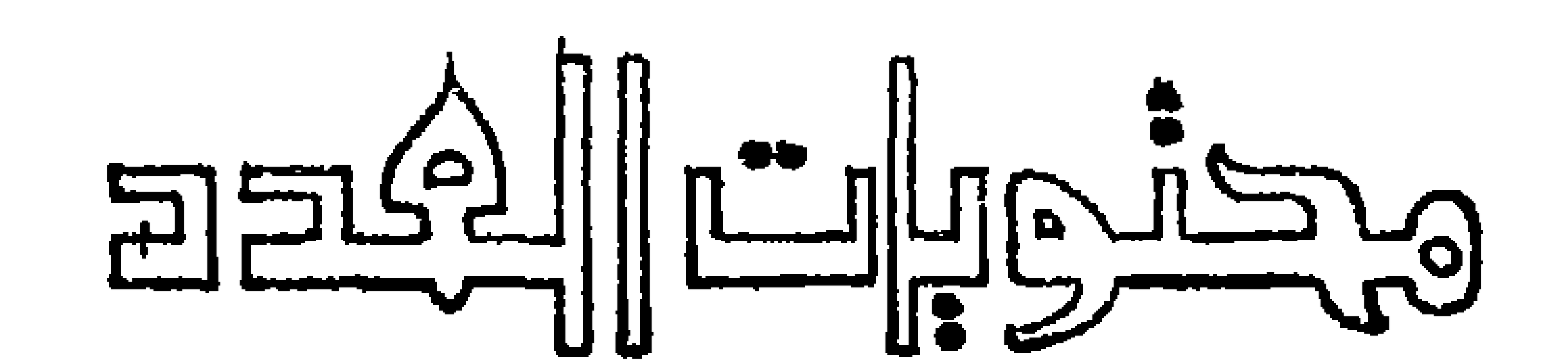
العنوان

ص.ب. ١١٩٤٢٩ بيروت

مؤقتا: ص.ب. ٢٨٥٧ الكويت

سعر النسخة ٤٠٠ ق.ل

الإشتراك السنوى فى لبنان: ١٥ ل.ل

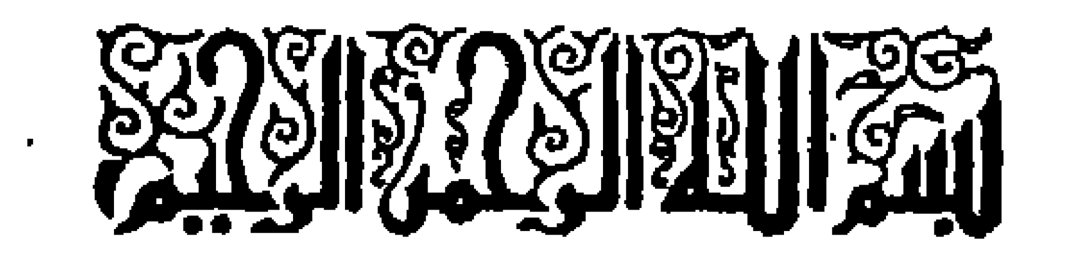


كلمة التحرير

ابحـــاث

حـــوار

نقد كتب


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

فى منهج العمل الإسلامى

القاعدة الأولى : الجماعة ضرورة :

العمل لاعادة بناء الاسلام الكامل من جديد فى أى مجتمع من المجتمعات لا بد أن يكون عملا جماعيا ، فهذا العمل الجماعى جهاد شرعه الاسلام وأملته الضرورة العملية .

هذه قاعدة لا شك فيها ، ويكفى فى الدلالة على ضرورتها أنه هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ دعوته المباركة بمكة .

ومن مبررات هذه السنة النبوية :

(أ) أن المؤمنين ــ فى حكم الاسلام ــ ليسوا أفرادا منفصلين عن بعضهم . وانما هم أخوة ، وهم ــ من ثم ــ جماعة مؤتلفة ذات شخصية متميزة . فمن الطبيعى ــ اذن ــ أن يتبع لقاء القلوب هذا : لقاء المشاركة فى تحمل أعباء الدعوة الى الله تعالى .

وأن يكون الأفراد الدعاة القلة ــ فى البداية ــ هم البذرة الصالحة ، والصورة المصغرة للمجتمع الاسلامى المنشود .

(ب) ان التعاون على العمل وسيلة لا يتم واجب الدعوة الا بها ولا يقوى المؤمنون على مواجهة التيارات المناوئة والمعادية إلا بها بل لا تتم تربية الدعاة وتدريبهم وتثبيتهم الا بها •

لقد رغب القرآن الكريم والسنة المطهرة فى العمل الجماعى ترغيبا بينا واقترن ضمير (الجمع) ـ فى القرآن والسنة ـ بالعزائم على فعل الخير • ودعم الحق •

القاعدة سليمة • بلا ريب •

ولكن بعض الناس غلا فى تصوره لأهمية الجماعة ومن الأمثلة على ذلك :

أولا : قياسها على جماعة الصحابة بمكة بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من غير مراعاة للفوارق فدعاهم هذا إلى تكفير كل من لم ينضم اليهم وكل من خرج منهم لأنه هكذا كان الحال أيام الرسول صلى الله عليه وسلم •

ذلك تصورهم المغالى

هؤلاء نسوا :

(١) أن قائد تلك الجماعة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم وأن طاعته والانقياد له : أمر لا يتم الإسلام للمرء إلا به سواء فى حياة الرسول أو بعد مماته •

(يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) الحجرات •

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) الحجرات ـ ٢

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الحشر ـ ٧

سأل رجل ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن مسألة فأجابه فيها بحديث .

فقال الرجل : قال أبو بكر وعمر

فقال ابن عباس : (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء)

أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟

رفع الملام عن الأمة والأعلام ص ٥٤

ومن هنا لا يجوز قياس قيادة جماعة من جماعات العمل الاسلامى على قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم . فلئن كان ابن عباس أنكر قياس كلام أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فإن اطراد علة النهى ينتظم الذين هم دون أبى بكر وعمر فى السبق والفضل والعلم والايمان فهما خير (خير القرون) .

(ب) ان الواقع الفعلى كان مطابقا للأمر التشريعى فلم يكن هناك إنسان يدعى أنه مسلم . أو يشهد أن لا إله إلا الله ، ويقيم الصلاة ، وهو لا يعد نفسه عضوا فى تلك الجماعة .

وواقعنا الآن غير ذلك .

فالملايين من الناس ينتسبون الي الاسلام ويصلون ويزكون ويصومون ويحجون وهم لا ينتسبون إلى جماعة من الجماعات الإسلامية . فالحكم عليهم بالكفر ـ قياسا على أولئك ـ تحكم وتعسف وانكار للواقع الماثل .

ثانيا : اعتبارها الجماعة التى ورد ذكرها فى بعض الأحاديث النبوية .

لقد تتبع الامام الشاطبى فى كتابه (الاعتصام) آراء العلماء فى معني كلمة الجماعة الواردة في هذه الأحاديث فوجدها خمسة :

١ ـــ السواد الأعظم من أهل الاسلام .

٢ ـــ جماعة أئمة العلماء المجتهدين .

٣ ـــ الصحابة على الخصــوص فهم الجمــاعة الأولى الممدوحة فى القرآن والسنة .

٤ ـــ جماعة أهل الاسلام فى مقابل غيرهم من أهل الكفر .

٥ ـــ جماعة المسلمين اذا اجتمعوا على الامام الموافق للكتاب والسنة.

خلص الامام الشاطبى من هذا الى قوله :

(فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والأتباع وأنهم المرادون بالأحاديث) .

يتضح من تلخيص الشاطبى ومن تعليقه : أن الجماعة المذكورة فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وســلم لا يمكن حصرها فى واحدة من الجماعات الاســلامية القائمة الآن . والمعروفة بأســمائها وقادتها ونظمها وأعضائها .

فاعتبار جماعة من هذه الجماعات هى جماعة المســلمين واعتبار الخــارج منها كافرا ، أو مفارقا للجماعة ، أو ميتا ميتة جاهلية : كل هذا تعسف لا مبرر له ، وتحجير لأمر جعله الله واسعا .

ان الجماعة المقصودة فى هذه الأحاديث ليست عددا محصورا من الناس وانما هى مجموعة أوصاف كل من اتصف بها فهو من جمــاعة المســلمين ، وكل من أخل بشروطها فهو ليس منهم ، هل يعنى هــذا أنه كفر كفرا يخرجه عن الملة الاسلامية ؟

إن هذا يعتمد على مدى الاخلال بتلك الشروط ؟ فالمبتدعون ـــ حسب تلخيص الشاطبى ـــ لا يدخلون فى هذه الوحدة ، ولكنهم ليسوا جميعا بكفار .

إن أهل السنة لم يكفروا الخوارج ولا الشيعة ولا المعتزلة ، مع أنهم يرون أنهم مبتدعون .

وكما غلا النـــاس فى حصر معنى الجماعة وتضـــييقه وتنزيله على جماعة بعينها من الجماعات القائمة اليوم فقد غالوا كذلك فى تفســير بعض العبارات الواردة فى أحاديث الجماعة هذه .

من ذلك :

(أ) وصفهم : للذى يخرج عن جماعتهم بأنه خرج على الجماعة . مع أن عبــارة (خرج على) تعنى المقاومة المسلحة لا مجرد المفــارقة والابتعاد .

وحتى هذا الخـروج المسلح على الجماعة المسلمة المبايعة لحاكم عادل لا يعتبر ــ فى حد ذاته ــ كفرا . وان اعتبر جريمة كبيرة .

والدليل على ذلك قوله تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ...) فسماهم الله مؤمنين رغم اقتتالهم .

والدليل عليه أيضا أن ســيدنا عليا ــ رضى الله عنه ــ لم يكفر الخوارج رغم خروجهم عليه . ومع وجود الأحاديث الصحيحة الواردة بشأن ضلالهم .

وفى القــرآن الكريم ما يدل على أن الذى لا يلتحق بجمــاعة المسلمين ـــ بمعنى الجماعة المبايعة لإمــام عادل ـــ ليس بكافر . وإن كان آثما .

يقول تعالى فى سورة الأنفال ــ الآية ٧٢ :

(والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق . والله بما تعملون بصير) .

يقول الأستاذ سيد قطب تعليقا على هذه الآية وهو يفسر سورة الأنفال فى كتابه (فى ظلال القرآن) :

« ثم وجد أفراد آخرون دخلوا فى هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلا . لم يهاجروا الى دار الاسلام التى تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ولم ينضموا الى المجتمع المسلم الذى أصبح يملك دارا يقيم فيها شريعة الله ويحقق وجوده الكامل ، بعد ما تحقق له وجوده فى مكة نسبيا بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع فى تجمع عضوى حركى مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجهة له بهذا الوجود : المستقل المميز .

وجد هؤلاء الأفراد سواء فى مكة أو فى الأعراب حول المدينة ، يعتنقون العقيدة ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذى يقوم على هذه العقيدة ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه .

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء فى المجتمع المسلم ولم يجعل الله له ولاية — بكل أنواع الولاية — مع هذا المجتمع لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الاسلامى » .

ولقد حرصت على أن أنقل رأى الأستاذ سيد قطب بالذات لأن له عبارات أخرى . اذا أخذت على ظاهرها — كما أخذها الكثيرون من قرائه — فانها تدخل ضمن هذا الغلو الذى أنتقده .

ولكن كلامه هنا — جد واضح — فى أنه لا يعتبر الذى لا ينضم الى جماعة المسلمين كافرا .

(ب) تفسيرهم لعبارة (مات ميتة الجاهلية) بأنها تعنى الكفر والردة . مع أن العلماء السابقين اعتبروها كقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة (انك امرؤ فيك جاهلية) وفسروها بأنها ميتة أشبه ما تكون بميتة الجاهليين الذين لا يخضعون لسلطان . ولا يبايعون إماما .

ثالثـا : الابتداء من حيث بدأ الرسـول صلى الله عليه وسلم • والمرور بكل المراحل التى مر بها حتى يتكون المجتمع الاسلامى الجديد كما تكون المجتمع الاسلامى القديم بالمدينة •

وهذا أيضا قياس مع الفارق • واغفال للواقع •

أفكلما تكونت جماعة جديدة للدعوة الى الاسلام اعتبرت نفسها جماعة المسلمين • وبدأت من الصفر كما بدأ الرسـول صلى الله عليه وسـلم مغفـلة جهوده هو وجهود المسـلمين من بعده • بل وجهود الجماعات الأخرى المعاصرة لها والتى سبقتها فى ميدان الدعوة وأثرت فى واقع الحياة ؟

القاعدة الثانية : التركيز على العقيدة لا يعنى اهمال الجوانب الأخرى •

القاعدة الثانية ، التى صحت جوهرا وعلما • وأخطأ النـاس فى فهمها وتطبيقها هى : قاعدة التركيز على العقيدة •

ان صحة العقيدة شرط فى صحة الإسلام ، وصحة العمل الاسلامى • فلا يتقبل الله عملا الا اذا كان منبثقا من عقيدة سليمة خالصة •

هذه قاعدة صحيحة •

لكن أناسا من المسلمين غلوا فى دينهم وفى تفسير هذه القاعدة • وما زالوا يتحرون الغلو حتى دعوا الى هجر كل شىء ابتغاء التركيز على العقيدة وحدها •

وهذا هو موقف قليل العلم والفقه •

وهو كذلك موقف سلبى بمقياس العمل والجهاد •

ومقولتهم فى هذا هى : ان منهج الأنبيـاء عليهم صـلوات الله وسلامه ، هو الابتداء بدعوة الناس الى تصحيح العقيدة حتى اذا

ما صحت وتركزت فى القلوب جاءت تفاصيل التشريع بنيانا معتمدا على أساسها المتين .

هذا كله صحيح .

انما جاء الخطأ من عدة أوجه .

فالغلو هنا هو نتيجة الغلو فى تفسير القاعدة الأولى . وذلك قول البعض : يجب أن نبدأ بالعقيدة كما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ندعو الناس إلا اليها . لا ندعوهم إلى تفاصيل النظم الاقتصادية أو السياسية أو القانونية .

لأن قبول هذه النظم تابع للتصديق بأنها من عند الله . والذى يؤمن بأنها من عند الله لن يتلجلج فى قبولها . ولن يحتاج الى أن نبين له محاسنها أو فضلها على غيرها من النظم .

وهذا التصور يهدم أو ينقض العرى الباقية من عرى الاسلام .
١ - فهذا الكلام اذا أخذ بحرفيته ، فانه يؤدى الى نتائج شنيعة فهو يعنى :

ألا نتعرض لتفاصيل الصلاة والصوم والزكاة والحج والأحوال الشخصية ولا ندعو الناس الى ترك الخمر والميسر والربا والزنا والظلم الاقتصادى والسياسى . ولا نلزم الدعاة أنفسهم بشيء من هذا ولا نقرأ القرآن المدنى ولا نتدبره ولا أحاديث الرسول بالمدينة ولا نعرف شيئا عن سيرته بها .

واذا كان هذا شنيعا وكان لابد من الحديث عن هذه التفاصيل فما الذى يمنع من الحديث عن تفاصيل الاقتصاد والسياسة ؟ ما الفرق بين هذا وذاك ؟ .

٢ - الدعوة الى توحيد الله تعالى لم تكن - حتى فى البداية - منفصلة عن الإيمان بالدار الآخرة والايمان بصدق الرسول والايمان بأن

القرآن وحى من عند الله • بل لم تكن منفصلة عن الدعوة لمكارم الأخلاق وحسن معاملة الناس •

وكل هذه أمور يحتاج الذى لا يؤمن بها الى أدلة وبراهين وآيات تبين له أنها حق •

فاذا أردنا أن ننهج النهج النبوى بمكة فلابد من أن نحدث الناس فى كل هذه القضايا ، لكى نبين لهم أن القرآن كلام الله تعالى • لابد أن نريهم اعجازه • وإذا كان العرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم قادرين على تبين اعجازه البيانى فان أكثر الناس اليوم عاجزون عن رؤية هذا الإعجاز ولكن حكمة الله تعالى قضت بألا يكون اعجاز الرسالة الخاتمة مقصورا على الاعجاز البيانى الذى كان مناسبا للأمة التى خوطبت بها أول مرة •

لقد جعل الله إعجاز القرآن أمرا مستمرا تراه كل الأجيال على مدى الزمان وامتداد الأيام • ومن هذا الاعجاز : الهدى الذى جاء به القرآن الكريم وهذا الهدى يشمل : الهدى الاقتصادى والسياسى والأخلاقى والنفسى والاجتماعى •• الخ

لقد كان الأنبياء — فيما مضى — يدعون أممهم الى التوحيد ويربطون هذه الدعوة بالمسائل التى تهم أممهم • فدعوة شعيب عليه السلام — ارتبطت بمشكلة اقتصادية (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (هود — ٨٤) •

ودعوة موسى عليه السلام ارتبطت بمشكلة سياسية : (فأتيا فرعون فقولا : انا رسول رب العالمين ان أرسل معنا بنى اسرائيل) (الشعراء — ١٦ — ١٧)

ولكن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم جعلت قرآنا محفوظا وسنة مبينة • دعوة فيها أصول الحلول لكل مشاكل الانسان

والداعية البصير يتخير من هذا الهدى الشامل الذى يجده بين يديه الأمور التى يراها تشغل بال قومه وزمانه فيربطها بدعـــوة التوحيد وغرضه من هذا ليس هو ـ كما يخشى البعض ـ دعوتهم إلى الالتزام بهذه القضايا مستقلة عن العقيدة ، بل غرضه أن يجعلها ذريعة يعطف بها قلوب مخاطبيه إلى الإيمان بالله ، وبرهانا على أن القرآن كلام الله .

٣ ـــ القول بأن الانسان حين يؤمن بالله تعالى ويكون مسلما لا يحتاج لأن نبين له محاسن ما يأمره الله به أو مساوىء ما ينهاه عنه : قول يبدو فى ظاهره صحيحا ولكنه غير صحيح .

أولا : هنالك فرق بين الايمان المجمل والايمان المفصل . فرق كبير بين من يؤمن على وجه الإجمال : بأن كل ما أمر الله به فهو خير وكل ما نهى عنه فهو شر ، وبين من يعرف ـ بالأدلة العقلية ، أو التجربة الحسية ـ الخير الكامن فى أمور معينة أمر الله بها ، وأمور معينة نهى الله عنها ، إن الايمان الصحيح هو الإيمان الذى يقوم على العلم . وإذن فكلما علم الانسان وآمن بما علم كلما ازداد إيمانه والإيمان ـ كما هو معروف ـ يزيد وينقص .

ثانيـــا : أن المعرفة نفسها درجات فالمعرفة بمجرد الخبر ، غير المعرفة بالدليل والتجربة ، حتى لو كان المخبر هو الله تعالى .

قال تعالى : (ولمـــا رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال : بئســـما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه) (الأعراف ـــ ١٥٠)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم معلقا على هذه القصة :

(يرحـــم الله موسى : ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح)

(أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس مرفوعا : أنظر تفســـــير ابن كثير)

وأبو الأنبياء ابراهيم — عليهم جميعا صلوات الله وسلامه — قال (رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) (البقرة — ٢٦٠)

ويقول الرسـول صلى الله عليه وسلم معلقا على موقف ابراهيم هذا (نحن أحق بالشك من إبراهيم) (رواه البخارى عن أبى هريرة)

يقول ابن كثير : (ان الشك المذكور هنا ليس الشك المعهود وان ابراهيم عليه السلام أراد وكما ذكر البعض — أن ينتقل من درجة علم اليقين إلى درجة عين اليقين .

ثالثـا : لو كان الأمر كما يصوره هذا الغلو فى تفسـير الايمان لجاءت آيات الأمر والنهى فى القرآن الكريم كالأوامر العسكرية غليظة جافة لا تبين حكمة أو سـببا ، ولا تعـلل أمرا أو نهيا ، ولا تسـلك الأسلوب الذى تلين له القلوب . ولكن الواقع أنها تفعل كل هذا .

انظروا مثـلا فى قوله تعالى : (يأيهـا الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر . وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين . فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون) .

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للنـاس وبينـات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هـداكم ولعلكم تشـكرون) (البقرة — ١٨٣ — ١٨٤ — ١٨٥)

ولنحاول فقه هذه الآيات

(كما كتب على الذين من قبلكم) اشعار بأن ما أمرتم به ليس شيئا جديدا . وانما هو أمر قد جربه الناس من قبلكم واحتملوه .

(لعلكم تتقون) . فالصيام ليس مأمورا به لما فيه من المشقة ، ولكن لأن هذه المشقة وسيلة لابد منها لنيل التقوى التى هى هدف كل مؤمن بالله تعالى .

(أياما معدودات) . فأنتم لستم مطالبين بصيام الدهر كله ولا نصفه وانما هو شهر واحد . انها أيام معدودة وتنقضى .

ومع هذا (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) .

ومن كان يتحمله ولكن بمشقة كبيرة . فليفطر وليفد .

والشهر المطلوب منكم صيامه ليس شهرا كسائر الشهور ، انه (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

وفى بقية السياق مزيد من بيان الحكم والتعليل . ولكن لعل فيما ذكرنا كفاية لبيان ما نريد .

رابعا : اننا انما نعرف الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته . والذى يدلنا على أسمائه وصفاته هو مخلوقاته وآياته وآلاؤه . واذن فكلما عرفنا الصلة بين شيء بما أمر به أو نهى عنه وبين حكمته تعالى أو رحمته أو عدله أو فضله كلما ازدادت معرفتنا بالله تعالى وازداد ايماننا به وحبنا له .

ولهذا فان القرآن الكريم لا يقتصر على بيان الثواب والعقاب الأخرويين . بل يبين لنا آثار الايمان ومنافعه فى هذه الحياة الدنيا أيضا . ويحذرنا من الكفر ويبين لنا أضراره فى هذه الحياة الدنيا .

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) (الأعراف ــ ٩٦)

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (الأنبياء ــ ١٠٥) .

(ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) (البقرة ـ ١٧٩)

خامسا : ولو كان هذا الكلام صحيحا ، لما كان هناك مجال لسهم المؤلفة قلوبهم .

فاذا جاز أن تؤلف قلوب الناس بالمال حتى تنعطف الى الايمان فلماذا لا تؤلف بالحديث عن المال أى عن هدى الاسلام فى شئون الاقتصاد وهديه فى السياسة .

سادسا : هذا النوع من التفكير أورث بعض الدعاة نوعا من الجفاء والغلظة فى مخاطبة الآخرين مع أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

(ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (آل عمران ـ ١٥٩)

ان هذه الآية توضح انه لا يجدى مع الفظاظة منطق ولا بيان حق ، ولا أى نوع من الاغراء .

انها وحدها كافية لفض الناس الخيرين عن الداعية مهما كانت رسالته ومهما كانت حجته .

يقول الشيخ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الوزير فى كتابه : (إيثار الحق على الخلق) معلقا على آية : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) (المجادلة ـ ٢٢) .

(هذا كله فى الحب الذى هو فى القلب والمخالطة لأجل الدين . وذلك للمؤمنين المخلصين بالاجماع . وللمسلمين الموحدين اذا كان لأجل اسلامهم من أهل السنة (كما يأتى) وأما المخالطة والمنافعة وبذل المعروف وكظم الغيظ وحسن الخلق واكرام الضيف ونحو ذلك فيستحب بذله لجميع الخلق الا ما كان يقتضى مفسدة كالذلة فلا يبذل للعدو فى حال الحرب كما أشارت اليه الآية (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين) (الممتحنة ـ ٨) .

(وصاحبهما فى الدنيا معروفا) (لقمان ــ ١٥)

(فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) (الشعراء ــ ٢١٦)
فأمره بالبراءة من عملهم القبيح لامنهم .

وهو يرى أن المسلم ليس منهيا عن أن يحب العاصى لخصلة خير فيه ولو كان كافرا .

وعصيان المسلم لا ينفى حبه لله ورسوله (لا تعينوا الشيطان على أخيكم أما إنه يحب الله ورسوله ؟) رواه البخارى . والرسول صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على هداية قومه ، كثير الحزن على إعراضهم ــ بكسر الهمزة ــ (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (فاطر ــ ٨) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (الكهف ــ ٦)

كنت أمشى مع أحد الأخوة المسلمين السود فى أمريكا . فطفق يعبر عن حرصه الشديد على هداية قومه ورغبته فى انقاذهم مما هم فيه .
فالتفت اليه فاذا عيناه تذرفان
إنها دمعة الرحمة وحب الخير للناس .

القاعدة الثالثة : اخذ الاسلام كاملا : ١٠٠٪ او لا شيء .

ومنهم من ينادى أو يخير المسلمين بين أمرين :

إما أن يأخذوا الاسلام كله

وإما أن يدعوه كله

وهذا غلو حمل أصحابه على الضيق بكل بادرة للخير . واساءة الظن بكل جزئية من جزئيات الحق والاصلاح . أنهم يريدون الغاء كل عمل إسلامى ليؤسسوا عملا إسلاميا كاملا .

ان النهج السليم أن نرحب بكل خطـوة خير ــ ولو كانت من كافر ــ وأن نطالب كل فاعل خير بالمزيد حتى تدخل فى شرائع الاسلام جميعـا .

فلقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى التوغل فى الدين برفق :

والرفق هنا يعنى :

١ ــ تناول الدين برفق .

٢ ــ التدرج فى السعى نحو الكمال الممكن .

وانه لمن المشادة الفكرية للدين أن يرفع شعار :

إما الاسلام كله ... وإما تركه كله .

وإنه لمن المشادة العملية للدين : أن يحاول أقوام تطبيق هذا الشعار وجعله سلوكا عمليا .

وانهم لمغلوبون ان هم فعلوا ذلك (ولن يشاد هذا الدين أحد الا غلبه) .

الطريقة الصحيحة هى : أن نعتبر أنفسنا بنائين نشيد صرح الاسلام لبنة لبنة ، وأن نعد كل عمل اسلامى : اضافة لبنة لهذا البناء .

لئن أريد بشعار أو فكرة (خذوا الاسـلام كله أو دعوه كله) الإيمان الكامل بكل ما جـاء فى القرآن الكريم والسـنة المطهرة فهذا حق . لأننا مكلفون بالايمان بالكتاب كله .

ولعل الخلط بين هذه القضـية وبين تطبيق الإسـلام ــ وفق الاستطاعة ــ وهو علة الغلو والفهم الخاطىء .

القاعدة الرابعة : الحذر من كيد الأعداء :

هذه قاعدة سليمة اكتنفها الغلو فى الفهم والتطبيق .

فالحذر ــ كيقظة نفسية وعقلية وسياسـية ــ مطلوب فى الحرب والسلم .

(يا أيها الذين آمنوا خـذوا حـذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) (النساء ــ ٧١) .

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) (المائدة ــ ٤٩) .

لكن الاسترسال الوهمى مع الحذر : غلو يحقق أهداف الأعداء من حيث أراد أصحابه أن يحبطوا كيد الأعداء فالغلو فى الحذر يحوله الى مخاوف تقوض العزيمة . وتربك كل عمل . وتشيع التطير والجزع فى صفوف الاسلاميين .

وهذه غاية يسعى اليها المناوئون للاسلام .

ومن أمثلة هذا الغلو فى فهم وتطبيق هذه القاعدة :

* كيد الأعـداء هو سبب تخلفنا وسبب كل شر أصابنا فى ديننا ودنيانا .

* الشعب طيب خير .

* الحكومات وحدها هى التى تعيق تقدم الاسلام والمسلمين .

* والحكومات فريسة للاستعمار والشيوعية .

* والشيوعية والاستعمار فرائس للصهيونية العالمية .

هذه الوسوسة المعقدة ــ الناتجة عن غلو فى فهم الحذر ــ أصبحت كالعقيدة المفروغ من صحتها وجدواها .

ونستطيع القول : بأن هذا التصور يتناقض مع منهج القرآن فى تحليل أسباب الضعف والهزيمة والمصائب . فالقرآن الكريم يرد الكوارث والمصائب التى تحيق بالإنسان إلى أسباب داخلية . نابعة من نفسه ومن انحرافه ومن اخلاله بشروط الاستقامة ومن تجاهله لسنن الله تعالى فى المجتمع البشرى :

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) (الشورى ـ ٣٠)

(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) (آل عمران ـ ٦٥)

(فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) (المائدة ـ ٤٩)

(ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) (الروم ـ ٤١)

(ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) (التوبة ـ ٢٥)

نعم هناك أسباب خارجية . وهى أسباب حقيقية ولكنها ثانوية .

وهذه الأسباب لن تضرنا شيئا اذا صحت الاستقامة على دين الله . وصح فقهنا للدين . وصح تطبيقنا له . وصح عزمنا على التفتيش عن أسباب ضعفنا داخل أنفسنا أولا .

(كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) (المائدة ـ ٦٤)

(لن يضروكم الا أذى ..) (آل عمران ـ ١١١) .

(وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) (آل عمران ـ ١٢٠)

(ان الله يدافع عن الذين آمنوا ..) (الحج ـ ٣٨) .

(ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (الأنفال ـ ٣٠)

فاذا فقهنا هذا فقد ترتب على هذا الفقه :

١ ـ أن نصارح الشعوب بأنها هى سبب الهزائم والتخلف .

٢ ـ وأن نكثف العمل فى اصلاح الشعوب ذاتها .

٣ ـ أن نسعى لإصلاح الحكم باعتباره صورة من المجتمع أو جزءا من واقع الشعوب .

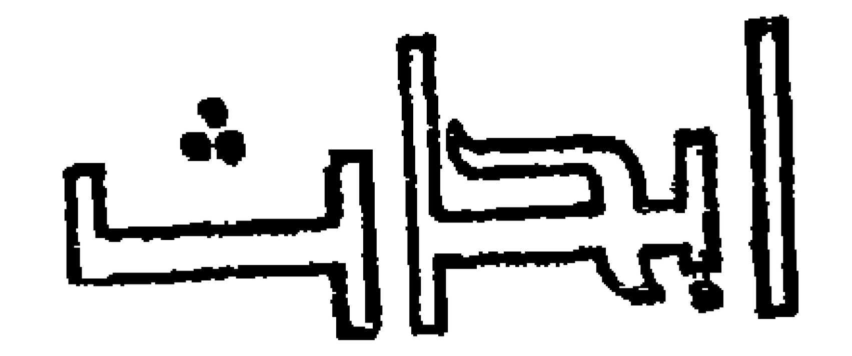
٤ ـ لا نكتفى بمجرد إلقاء الاتهام ، بل نبذل جهدا حقيقيا فى التحقيق والتثبت . وجهدا ايجابيا فى تغيير الواقع .

٥ ـ أن نستفيد من تضارب مصالح الخصوم متخلين عن النظر اليهم باعتبارهم شيئا واحدا (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى)

٦ ـ أن نحرر القلب الاسلامى من ضغوط الوساوس والتطير والاستسلام لفكرة القوى الخفية التى تدير العالم .

فهى ضغوط أصابت الكثيرين بالشلل أو بالتردد والارتباك .

د . جعفر شيخ ادريس



الفكر الإسلامي المعاصر
مضمونه ومستقبله

د . محمود ابو السعود

---

* وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ـ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم *

شرعة الاسلام

مسلمات :

١ ـ افترض الداعون الى هذه الندوة [1] ان العالم الاسلامى اليوم يتعثر فى خطوه نحو نهضة جديدة أثر فقدانه لحضارته التى تقوضت منذ أكثر من خمسمائة عام ، وان أهم أسباب تكفئه : هو ذلك التيه الفكرى الذى يخيم عليه فهو حيران بين اسلاميته التى يؤمن بصحتها وأحقيتها وصلاحها كأساس لحضارته المستقبلة ، وبين المذاهب الفلسفية المادية : رأسمالية واشتراكية ، التى تسود العالم كله ، بما فى ذلك دول المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهذه قضية مسلم بها عند الغالبية من الناس .

---

(١) هذا البحث قدم الى ندوة خاصة للفكر الاسلامى

٢ ـــ والمسلمة الثانية هى عدم وضوح « الاسلامية » بالدرجـة التى يمكن معها للمسلم أن يجابه المذاهب السائدة ، وأن يقرعها بالحجة حتى يظهر عليها • ان أشد المسلمين اقتناعا باسلاميتـه ليجد الحرج الشديد حين يضطر الى مناظرة يطلب فيها منـه أن يبين كيف سيحل تطبيق مذهبيته مشاكل الحكم والاجتماع والاقتصاد والقيم الأخلاقية فى مجتمع القـرن العشرين الذى يتميز بالعلم التجريبى والتجمعـات البشرية الهائلة والتقنية الآلية والانتاج الصناعى المهـول ، هذا الحرج قائم يحسنه العام والخاص من المسلمين •

٣ ـــ والثالثة التى لا محيص عنها هى : أنه لن تقوم للمسلمين حضارة ولن يلتئم لهم شمل بل لن يستطيعوا أن يتميزوا فى الخلق كجمـاعة لها رسالتها ما لم تتوحد لديهم فكرة « اسلاميتهم » وتتضح معالمها بحيث تصبح دستور العالم وعقيدته ، ويعيش من أجل تحقيقها ويحس فى قرارة نفسه حرارة الإيمان بها والسعادة الغامرة فى الجهـاد فى سبيلها وحتى تصبح تلك الاسلاميـة المعين الثرى الصافى الذى يستقى منـه العلماء والمصلحون والمشرعون حين يعالجون جوانب الحياة المختلفة ويرسمون للمجتمع الجديد نظم حياته المعاشية ، واعين مشاكل العصر ، ومجيبين على ما تطرحه من أسئلة وقضايا مستحدثة •

هذه مسلمات ثلاث • لا أحسبنى فى حاجة إلى التدليل عليها ، أو تحليل العوامل التى أدت اليها فقد كتب فى ذلك الكثير • وكل قول فى هذا الموضوع معاد • لذلك أعرض مباشرة مشروع صياغة « الإسلامية » محاولا سد ما يوجد من نقص ، وتجلية ما هو شائع من تيه ، مستعينا بالله القوى المتين مستعصما ، به متوسلا اليه : أن يهدينى الى سبيل قد يوصل من قريب أو بعيد إلى الأمل المنشود •

منهج البحث :

ان المتفحص للبحوث الاسلامية التى كتبت فى هذا القرن يجد : أن غالبية الباحثين يتناولون موضوعاتهم منجمة ، بمعنى : أن من يكتب فى

الاقتصاد مثلا يحاول رسم نظام اقتصادى اسلامى قائم بذاته غير منبثق من الفلسفة الاسلامية أو المذهبية الاسلامية الشـاملة وسرعان ما يجد أن سبيله فى بحثه قد قاده الى متاهات تؤدى به فى النهاية اما الى تعميم لا يفيد واما الى محاولات فاشلة تهدف الى المواءمة بين أوضـاع قائمة مستقرة تحت مذهبيات غير اسلامية وبين مبادىء اسلامية ثابتة بالنص فى الكتاب والسنة .

هذا التناول الجزئى المتشعب كان سببا مباشرا فى تشتت الأفكار العلمية التى انصبت على دراسة نفس الموضوع ، ذلك : أن كل باحث سلك طريقا معينا من خلال خصوص فهمه للاسـلامية المحدودة ـ ان لم تكن المجهلة ـ فتفرقت بهم السبل ولم يوفقوا الى وحدة الرأى ولم يجمعوا على حل موحد لما عالجوه من قضايا ومشاكل .

الرأى عندنا : إنه ما دمنا نؤمن بأن الاسلامية فلسفة حياة تفسر الكون ووجوده والإنسان وغايته ، وترسم للحياة صورا : ان حققتها فقد حققت الهدف من وجودها واتسقت مع الحكمة من خلقها . ما دمنا نؤمن بهذا فيجب أن نبدأ بتقرير هذه الاسلامية وفهم فلسفتها ، ومعرفة مذهبيتها التى تمدنا بالقواعد الأساسية التى تقوم عليها مختلف النظم التى تضبط حياة البشر فى هذا الكون . سواء منها ما كان منصبا على علاقة الانسان بخالقه أم علاقته بمن حوله من الخلق ، والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . والقيم الجمالية فى مجتمع معين انما تستمد قواعدها الأساسية من المثالية أو المذهبية التى تسود هذا المجتمع وهى فى نفس الوقت ترسى من دعائـم هذه المثاليـة حين تطبق فى واقع الحياة .

من أجل هذا لا تقبل النظم السياسية أو الاقتصادية الشيوعية فى بلاد ديمقراطية رأسمالية ولا العكس .

... ومن أجـل هذا أيضا : ينبذ الإسـلام أى نظام من هـذه النظم (مستوردة) من بلاد اتخذت لنفسها عقيدة ومذهبية غير الاسلام .

وليس أخطر على الاسلامية من تطعيمها بنظم نابعة من غيرها من العقائد اذ لن يفيء مثل هذا الخلط إلا السم فى الجسد والخسارة فى العمل والفساد فى الروح •

سنبدأ إذن بتحديد المثالية الإسلامية ، ويعنى بها : الكلية التى يقول بها الاسلام ، والتى تفسر للإنسان هذا الخلق كله ، وتحدد دور الإنسان فيه ، وتربطه بالقوة الخالقة له ، ثم ترسم له الغاية من وجوده والسبل الرئيسية التى سنتها الفطرة للوصول الى هذه الغاية ، وسنطلق عليها لفظ « شرعة » تمييزا لها عما سواها لما اختص به الاسلام من أصالة وانفراد فى الجوهر والمظهر •

ونحب أن نشير فى مستهل هذا البحث إلى : أن الإسلامية ليست هى المثالية الخيالية أو الطوبائية (Utopia) التى يعرفها دارسو الفلسفة والتى يعيبها بعدها عن واقع الانسانية وما ركب فيها من غرائز ونزعات وما يعتورها من نقص وقصور • إذ الإسلامية شرعة واقعية أبعد ما تكون عن خيال الشعراء ومن اليهم من الحالمين •

وسنتحدث عن شرعة الاسلام حين نطبقها على واقع الحياة البشرية باعتبارها « مذهبية » (Doctrine) تستمد ركائزها من فلسفة المثالية العامة والحق الذى لا مرية فيه أن الاسلام أقرب الى فكرة « المذهبية » منه الى المثالية فهو هدى من الخالق سبحانه وتعالى الى البشر ينير لهم سبل الخير ويرسم لهم قواعد السلوك وقوانين المعاملات ، كل ذلك فى إطار فلسفته العامة الواضحة • من أجل ذلك : كان من الصعب فصل المثالية عن المذهبية • اللهم إلا إذا تحرينا التجريد الفلسفى عند الحديث عن المثالية ، ولسنا نحسب أن فى ذلك أى عناء ، فالأحرى اذن أن نعالج « الاسلامية » مثالية ومذهبية كشرعة متكاملة ، وأن نصرف النظر عن التقسيم المألوف عند المعاصرين من فلاسفة الغرب ، فلهم دينهم ولنا دين •

وإذ كان لب المقصود من هذا البحث : اخراج المذهبية الاسلامية بأسلوب العصر ، واذ غلب على الناس فى هذا الزمن المنهج التجريبى

بشقيه الاستقرائى والاستنباطى ، وأصبح للمنطق العقلى ـ بذلك ـ مركز الصدارة فى تقرير ما هو حقيقة فى ذاته ، لذلك تعمدنا أن نورد سياق المذهبية الاسلامية فى شكل علمى ، والعلم لدينا : معرفة الحق بدليله ، مستعينين بالمدخل التجريبى والاستخلاص المنطقى لاقامة الدليل على الحق الذى هو لدينا كمال الاسلام كشرعة تفسر معالم الكون وتؤدى دون سواها الى تحقيق الغاية من حياة الانسان ووجود الكون كله على مر العصور .

وليس فى ذلك من حرج :

اذ ليس يخفى أن العلوم الدينية وهى « فقه طريق الآخرة انما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء . والعقل أشرف صفات الإنسان . اذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل الى جوار الله سبحانه »[1] على أن هناك فارقا واحدا بين منهجنا والمنهج التجريبى البحت ذلك اننا نؤمن بما لا سبيل إلى نكرانه من : أن الإنسان مادة وروح ، وهذان العنصران وإن اتحدا فى الإنسان الحى ، إلا أنهما مختلفتان تماما فى ماهيتهما ، ونحن ننكر ان المادة سابقة على الروح أو ان الروح ليست الا نتاج تفاعل لطاقة صادرة عن مادة ، فذلك مجرد فرض علمى قال به الماديون لم يرتق بعد الى مرتبة « النظرية » دع عنك الحقيقة العلمية الثابتة .

والروح لدينا (واعية مدركة) ، ولهذا نعتبرها مصدرا من مصادر المعرفة . وان خفى علينا كنهها وطرائق اكتسابها لهذه المعرفة ، وليس فى ذلك ما يعيب : اذ أن جهلنا بكيفية عمل العقل ـ وهو مادى لا يتصور الا ما كان ماديا ـ هذا الجهل لا يبرر الغاء العقل وليس مطعنا فى النتائج والمعارف التى يتوصل اليها .

كذلك تعمدنا أن نجتهد فى سوق الكليات التى جاءت بها شرعة الاسلام دون أن نورد الآيات والأحاديث التى تستند عليها هذه الكليات

---

(١) احياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى حـ ١ ص ١١ .

مع سهولة هذا التخريج ووضوحه • وإنما دعانا إلى ذلك : تنكر كثير من المسلمين للنصوص الموحى بها بدعوى الاختلاف فى التفسير والتأويل أو بدعوى عدم اليقين من صحة السند فى الأحاديث الشريفة •

وهذا أمر مؤلم مؤسف ، ولكنه واقع مرير • وعسى الله أن يهدى من ضل عن سبيله •

شرعة الاسلام

١ ـ وحدة الخالق ووحدة المخلوقات :

تقوم شرعة الإسلام على أساس عقدى منطقى ألا وهو (مبدأ توحيد الخالق ووحدة الكائنات) • والإسلام فى ذلك قد بين العقائد والأديان • اذ لا يكاد المرء يجد بين أحكامه أمرا ينفر منه المنطق السليم أو يجحده العقل المقسط •

هناك وجود تعكسه الحواس ، فهو وجود حسى محدود ، اذ غير المحدود مطلق والمطلق فوق مرتبة الحواس •

وهنا وجـود يدرك بغير الحواس الخمس : إما بآثاره المحسوسة أو بالشعور به • فنحن ندرك وجود الحياة بتتبع الحركة المحسوسة فى الكائن الحى • ونحن ندرك الحب والبغض ، والسماحة والضن ، والكرم والبخل ، والخير والشر ، وغير ذلك من القيم بشـعور غرزى مستسر لا يدرك العقل كنهه ، لأن العقل لا يدرك إلا ما تعكسه الحواس الخمس ، والحواس لا تدرك القيم المعنوية •

ويدلنا منطق البديهة على : أن الموجود لابد له من موجد أو خالق ، وخالق الموجودات كلها ـ فى دين الله ـ هو الله البارىء المصور ذو الأسماء الحسنى ، ولا يضيرنا أن يسميه الصائبة ما شاء لهم هواهم أن يسموه : السبب الأول ، أو القوة الخالقة ، أو الطبيعية ، أو غير ذلك •

ويدلنا منطق الاستقراء على : أن الموجودات كلها متصلة منسقة ، وانه يستحيل على موجود أن يستقل بذاته ، فوجوده مرهون بوجود غيره

وما اجتمعت جواهر ذرة ولا كتلة جسم ولا كهرب أو نوية لخلية بغيرها إلا وانتظمت هذه التجمعات قوانين فطرية أزلية • عرف الانسان بعضها عن طريق رسل الخالق إلى خلقه وعن طريق الفطرة والبديهة • وعرف بعضا آخر عن طريق البحث العلمى على مر العصور وما زال أمامه الكثير مما لا يعرف •

ومن هنا استقرت فى الشرعة الاسلامية قواعد بديهية :

(أ) فالكون كله مخلوق •

(ب) والكائنات كلها متصلة متسقة ، فيها انطلاق واستمرار ، ومردها الى أصل واحد •

(جـ) وانطلاق الكائنات مستمر فى اتجاه واحد لا يعرف التضاد ولا الاحتراب ، ما تركت قوانين الفطرة تعمل عملها ، سواء أكانت هذه الكائنات عضوية أم غير عضوية ، بشرية أم فيزيائية ، ومنطق البديهة يثبت على خلاف ما استقر فى أذهان الناس منذ القدم : ان « فلسفة الأضداد » تصور خاطىء : فليست الأشياء بين حق وباطل ، أو بارد وساخن ، فى شكل مطلق ، ولكن هذه الأوصاف نسبية • تلحق بمحل الشىء فى ركب نوعه المتسق فى اتجاه واحد • فحرارة جسم ـ مثلا ـ هى معامل الحركة الذرية Function of molecular movement من دون الصفر الى أعلى ما نعرف أو ندرك من درجات الحرارة ، أما البرودة والسخونة فهما أمران ينتسبان الى جسم الإنسان وذلك بالبداهة : أمر عارض •

والحمضى والقلوى ليسا ضدين ، ولكنهما معاملان لتركيز حبة الهيدروجين Concentration Function of Hydrogen والأسود والأبيض ليسا ضدين ولكنهما انعكاس للضوء الذى هو قطاع للموجات الكهربائية المغناطيسية Segment of electro-magnetic wave التى تتأثر بهـا العين اذ المقرر أن الأجسام كلها ، حتى الأسود منها تشع موجات شبه ضوئية ،

وإن اختلفت ذبذبتها .

والذكاء والغباء ليسا قطبين متعارضين ، ولكنهما نقطتان متباعدتان فى منحنى الادراك البشرى ومدار القوى الفكرية .

والحب والبغضاء ليسا قطبين متعارضين ، ولكنهما نقطتان متباعدتان فى منحنى الشعور البشرى الممتد من دون الحياد السلبى الى الانفعال الحسى .

وهكذا نجد أن الأجسام حين ينظر اليها بمنظار الفيزياء انما هى نظام متسق دائب السمت يصف حركة الذرة .

وحين ينظر إليها بمنظار الكيمياء ، فهى نظام متسق دائب السمت يصف مركبات هذه الأجسام . كذلك نجد أن الإنسان فى تركيبه وتصرفاته حين ينظر اليه بمنظار المعيار الحياتى الفطرى فهو نظام متسق دائب السعى نحو الاستكمال البشرى ، يوصف بما هو عليه فى ركب المجتمع الانسانى : بدئا من مدى عزوفه عن القوانين الأزلية وانتهاءً بما يصل اليه انصياعا لها .

٢ ــ النسبية الوجودية :

وإجمال القول : إن الشريعة الإسلامية تقوم على حقيقة أزلية لم يلتفت إليها الناس إلا القليل منهم فى العصر الحديث ألا وهى (وحدة هذا الكون ووحدة خالقه) .

فالكائنات كلها من خلق واحد أحد هو الله سبحانه وتعالى ، وهى كلها تسبح بحمده وتسبيحها اتباع لازب دائب لقوانينه الأزلية ، إذ كل ما فى الوجود يخضع لقوانين تتناول تركيبه الذاتى وعلاقته بغيره من الموجودات ، يستوى فى ذلك ما على الأرض ، وأفلاك السماوات وما فيهن ، والإنسان حيثما كان .

ووجود أى جوهر مرهون بوجود الكائنات الأخرى ، ولا يوجد « مطلق المنفرد » خلا الله تبارك وتعالى فهو وحده المطلق المنفرد فى وجوده

وإطلاقه ، ولا يتصور وجود كائن ـ عداه ـ الا منتسبا الى غيره ، تلك هى « النسبية الوجودية » .

و « النسبية الوجودية » لكل جوهر كائن تفرض التسبيح فى شكل علاقات ثابتة مطردة تنتظم الكائنات جميعا وتوجد بينها نسقا بالغ الدقة باهر النظام ، وكل ما يحدث فى الكائنات إنما هو نتيجة تفاعل هذه العلاقات المطردة أو القوانين الأزلية ، وهو أمر « بقدر » وليس مجرد صدفة بحتة ، ولا وليد عمل الطبيعة ، اذ ليست الطبيعة الا مجموع ما فى الكون من كائنات تخضع للنسبية الوجودية التى فطر الله الكائنات عليها .

واذ كانت الكائنات من خلق واحد أحد .

واذ كانت نسبتها الوجودية راجعة الى قوانينه وقدره .

لذلك فلا معدى من التسليم بوجود وحدة تضم هذا الوجود بأكمله ، ما كان ذا طاقة كامنة فيه أو ذا حياة تسرى فى أجزائه أو روح تتقمص بدنه .

ومقتضى الوحدة الكونية أن يكون الانسجام والاتساق والتضام من صفات القوانين التى تحكم النسبية الوجودية ، اذ لو انعدمت هذه الصفات لتنافرت جواهر الكائنات وانشعبت وانفرطت وحدتها .

وهذه الصفات الكونية مدلولها الاتساق بين ذوات الطاقات ،

والنماء بين ذوات الحياة والخير والحب والسلم بين ذوات الأرواح .

فحين يهطل المطر مدرارا على قمم الجبال فيفتت الصخر منها ، وحين ينحدر هذا الصخر يحمله الغيث جارفا ما يعترضه ، ثم حين يحفر هذا السيل لنفسه مجرى فى الأرض على سفوح الجبال والوديان ، ثم حين يسرى الماء هادئا فى مجراه على البسيطة ويتخلل تراب الأرض ويتفاعل مع ذراتها فإذا بالحياة تدب على شطآنها . حين يحدث هذا

كله إنما يحدث بقدر . وهو توحد بين ذوات الطاقات ، ونماء لذوات الحياة وخير وحب وسلام بين ذوات الأرواح . وليس ثورة فى الطبيعة كما يصورها الماديون ، ومن والاهم من ذوى القلوب المريضة ، بل هو تسبيح لصاحب القدرة ، واتساق مع قانون الله الأزلى .

٣ ـ الانسان والكون :

والانسان فى هذا الكون على أعلى ذروة فيه ، فهو وحده الذى أعطى « الأمانة » : العقل المميز والارادة المتصرفة ، وهب الطاقة فى تركيبه المادى ، والحياة منذ كان نطفة ، والروح ساعة أن نفخ الله فيه من روحه . من أجل هذا كرمه الله سبحانه على كثير من خلقه وفضله ، واختصه بما لم يختص به سواه .

وعماد تكريم ابن آدم حريته فى عبوديته : الانسان عبد لله ، كائن مخلوق يخضع فى الكثير لما تخضع له باقى الكائنات ، يتأثر بها كما يؤثر فيها بحكم النسبية الوجودية ، ويتميز عنها بالعقل ، حرا فى تصوره . (ولا جدوى لتصور لا يخرج فى شكل رأى) ومن هنا أصبحت حرية الرأى فى شرعة الاسلام ركنا أساسيا لا غنى عنه .

أما شطر الأمانة الثانى فهو الارادة ، وهى رديفة الرأى والتصور ، اذ الانسان لا يمكن أن يريد شيئا لا يتصوره .

وكلا الشطرين مرتبط بالعبودية ارتباط لزوم وليس ارتباط ارادة حرة مردها الى اختياره : اذ سواء آمن الإنسان بخالقه أو جحده ، فهو كائن مخلوق يخضع للقوانين الأزلية ، فأما ايمانه وأمانته وكرامته فتهديه الى الاتساق مع هذه القوانين والاستفادة من النسبية الوجودية ، وأما كفرانه وجحوده وكنوده فتلك نقائص فيه تخضعه لقانون يعاقب الخارج عن النسق بما يلحق به الضرر والتلف والبوار .

الانسان فى عبوديته يخضع للنسبية الوجودية فيستحيل عليه أن يعيش منفردا بذاته بل لابد له من مجتمع انسانى وبيئة طبيعية ، وهو فى مجتمعه وبيئته يخضع للقوانين التى تحكم الموجودات ، وهى كما سبق ذكره

قوانين تحقق الانسجام والاتساق ، والنماء والبقاء ، والخير والحب والسلام ، وهذه القوانين ذاتها تحكم سلوك الفرد وتصرفاته ، اذ هي التي تحدد الغرائز فيه ، وما الغريزة إلا ذلك التركيب « الشعوري الفيزيائي » الذي يحدد انعكاسات الكائن الحي ويقرر دوافع نشاطه الحسي والعاطفي .

والغاية من خلق الانسان أن يعبد خالقه ، والمقصود بالعبادة هنا تحقيق قوانين الخالق الأزلية والائتلاف مع مجموع هذا الكون الذي يكون الانسان جزءا منه ، وبقدر ما يطبق الانسان من القوانين الأزلية بقدر ما يتقرب من خالقه ويستعلي بنفسه ويستكمل من شخصيته ، وهذه هي الغاية القصوى من حياة الانسان في الشرعة الاسلامية . وما الحياة المادية الا مطية السمو الروحي .

والغرائز في الانسان على نوعين ، وان صعب الفصل الكلي بينهما : غرائز تنصب على المادة فمنها المتعلقة بحفظ النوع (الغريزة الجنسية) وبحفظ الحياة (غريزة الطعام) ويتفرع منها الأمن الحسي (غريزة الدفاع عن النفس) ، وبادراك الذات (غريزة التمايز ويتفرع منها غريزة الملكية) .

وبجانب هذه الغرائز توجد غرائز تتعلق بالمعنويات وهي التي يختص الانسان بها نتيجة ما حمل من أمانة وما تميز به من تكريم ، وأهمها غريزة الانتماء ، وهي الصورة الانسانية لقانون النسبية الوجودية ، وهي غريزة عميقة بالغة الأثر ، فكما يجب أن تظل جواهر الذرة متجمعة مسبحة في دائب حركتها الذرية ، كذلك يجب أن يظل الفرد (جوهر المجتمع) مجتمعا مسبحا في فلك مجتمعه وما الانسان العليل الا ذلك الذي يفشل في أن يندمج مع مجتمعه ، ومن الخطأ افتراض التجارب بين الناس على أساس غرزي وانما يوجد التباغض . والتظالم والتحارب لعدم الانصياع للقانون الأزلي ، ولعله من المفيد أن نبين أن سبب هذا الخطأ في المذهبية المادية راجع الى اعتبار الانسان كائنا خلا من الغرائز المعنوية فهو يعيش بحافز من غرائزه المادية فحسب

وهذا عندنا هو سر البلاء الذى تعانيه الشعوب الغربية ومن اتبع مذهبيتها من الشعوب الشرقية •

وهناك غريزة التسامى والبناء وهى التى تحفظ على الانسان كرامته ومكانته فى هذا الوجود ، وتعكس القوى التصورية والإرادية فيه ، وهى التى تجعله يرنو الى « تخليد » نفسه ، ويجب أن يمتد فرعه من بعده ، وأن يطيب ذكره بعد انقضاء أجله •

وإشباع هذه الغريزة الفطرية يؤدى بالانسان فى شرعة الاسلام الى باب الايمان ، اذ تهديه الفطرة الى أمرين متداخلين :

الأول : انه يخضع لسنة الهلاك ، أى انه لن يخلد على هذه الأرض فهو راحل عنها لا محالة يوم يحين أجله ، اذ لا يوجد على الأرض من المحسوسات ما لا يهلك ، وان اتخذ الهلاك شكل الاستحالة من جوهر الى جوهر آخر •

والثانى : ان الموت لا يعنى أكثر من هلاك الجسد المحسوس الذى يستحيل الى غازات وفلزات أولية ، أما روحه التى هى من أمر الله فسترد الى خالقها ، وستمتد حياتها الى ماشاء أمره وأنها فى حالها الجديد تخضع للقانون الأزلى الذى يتمثل فى الفعل ورد الفعل أو فى الثواب والعقاب • وما بعد الموت فى الحالين الا استمرار لما قبله •

وهكذا تطرد حياة الانسان فى حركتها على منحنى الزمن اللانهائى من يوم خلقها الى يوم بعثها فى الأزل المحتوم •

وهناك غريزة الحب وهى التى تنصب على ذاتية الفرد ، فتعرفه بذاته وترشده الى سلك سبيل الانتماء والاتحاد مع غيره •

وأخيرا هناك غريزة الذات وهى التى تجعل الفرد يشعر بأنه هو « هو » أو بعبارة مستحدثة يحس بمعنى « أنا » أى انه كائن له ارادة ووعى وتصور ، فهو ليس مجرد مخلوق ينساق دون شعور لحكم القانون الأزلى ، ولكنه كائن فيه نوع من الاستقلال عن الطبيعة ينعكس

فى قدرته على تسخيرها والاستفـادة منها والانسجام معها والعيش فى ظلها .

وهكذا نجد الاسلامية تقرر :

١ ــ أن الكون كله مخلوق وخالقه واحد أحد .

٢ ــ أن الانسان يعيش ليعبد الله باتباع ودوام استكشاف قوانينه الأزلية .

٣ ــ أن الانسان يعمل : تحفزه غرائزه مادية ومعنوية فى آن واحد .

٤ ــ أن الانسان ينشد السعادة ويتوصل اليها بالدأب على العبادة واشباع الغرائز بشقيها .

٥ ــ أن الانسان يتمتع بحمل الأمانة وهو حر فى عمله .

٦ ــ أن الانسان حى فى دنياه وأخراه وهو مسئول عن عمله .

٤ ــ الانسان خليفة فى الأرض :

ان الحرية التى اختـص بها الانســان جعلته الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يسخر ما حــوله من الكائنــات لمنفعته ومتــاعه ، فهو بذلك فى مركز الولى على هذه الأرض وما احتوته ، المشرف على ما فيها من طاقات وخيرات ، لا منازع له ممن عداه .

وسواء أكفر الانسان بالله أم آمن به ، فلا معدى له من الاقرار بأنه مخلوق ، وبالرغم من أنه أعلى الكائنات درجة على هذه الأرض ، الا أنه ــ لحق اليقين ــ غير قادر على الخلق ، وبالتالى فليس الإنسان هو رب الكون وليس مالكه الأصيل ، وانما الأرض والسماوات وما فيهن من خلق « السبب الأول » أو القوة الواحدة الخالقة ، أو ما يعبر عنه المسلمون من اتباع الرسل : هن من خلق « الله » تبارك وتعالى .

الانسان مخلوق ، وخلقه من قبل غيره « سبحانه » وليس من ذاته والانسان موهوب بصفات تسوده على سائر المخلوقات ، والهبـة من غيره ، وليست من صنع يده ، بل هى من صنع خالقه (جل جلاله) .

ومن هنا وجدت العلاقة بين الانسان وسائر الكائنات وهى علاقة سببية ثابتة الأطراف مطردة الحكم ، فيها اللزوم والالتزام ٠

فيها لزوم : اذ الخالق هو المسبب لهذه العلاقة ، وتلك إرادته التى لا يد للانسان فيها ، فهى أمر منه وهى لازمة أو فطرة مقضية ٠

وفيها التزام : لأن الكائنات كلها — فيما عدا الإنسان — تخضع « تلقائيا » لقوانين تضبط حركتها وطبيعتها وتفاعلاتها ونماءها ، وهذا الخضوع التزام لا يقبل النقض ولا يعتوره من ذاته افتئات ٠

والانسان مخلوق وهب الأمانة : الوعى والارادة أو الخيار ٠ ولكن وعيه واختياره ليسا مطلقين ، اذ هو بحكم خلقه خاضع أيضا لقوانين أزلية تحدد نطاق ما وهب من أمانة فليس تسلطه على غيره تسلطا غير محدود ، وليس الحد نابعا من مجرد الادراك والخيار بل أن ذلك مرده الى طبيعة العلاقة السببية ذاتها ، فهو ملتزم بما تفرضه هذه العلاقة من قوانين وأسباب منظمة وان كانت متعددة وهو حر فى اختيار الأفضل له منها فى كل علاقاته مع غيره ٠

واذ وهب الانسان خصوصية الوعى والارادة ، واذ كرم بأن جعل له الروح مصدرا اضافيا للمعرفة والادراك فقد اختص بالخلافة على هذه الأرض بحكم القانون الأزلى ، أو بحكم الواقع الذى تقرره العلاقة السببية الثابتة ، ومضمون خلافته فى الأرض هو نفس علة وجوده ، والحكمة من خلقه ، هو استعماره الأرض واصلاحه فيها ، ولن يتم ذلك على الوجه الأمثل اللهم إلا بقبوله القوانين الأزلية واتباع سننها ٠ وذلك لب العبادة ، وحقيقة معنى التسبيح ٠

خلافة الانسان فى الأرض تعنى قوامة ابن آدم على ما عداه ، والقوامة تتضمن أمرين :

الحماية والاصلاح :

الحماية :

المحافظة على الذات غريزة أساسية فى كل انسان ، بل فى كل كائن

حى ، والفرق بين الانسان وما دونه من الكائنات أن الانسان يتحكم بعقله فى غريزته بينما تنصاع باقى الكائنات تلقائيا لقوانين البقاء دون ارادة أو وعى •

واذ يستحيل على الانسان – كجنس – أن يعيش مستقلا بجنسه عما عداه ، اذ هو محتاج الى ما فى الكون بداهة حتى يعيش ، وذلك مضمون النسبية الوجودية ، اقتضاه ذلك أن يحافظ على (بيئته) التى هى مسالك حياته وأن يحميها ما استطاع الى ذلك سبيلا وهذه البديهة المقررة توصلنا الى كنه العلاقة بين الانسان وغيره من الكائنات (الطبيعية أو البيئية) فهى على كل حال علاقة اتساق وليست علاقة تنافر ، وهى فى جوهرها نابعة عن ضرورة الحياة واستمرارها وعمرانها ، فهى علاقة تكتسى فى ظاهرها وباطنها معنى السلم ، وهى تتنافى مع كل فلسفة أو فكرة تصمها بالاحتراب أو التعارض •

الاصلاح

أما الاصلاح المتضمن فى القوامة فينصب على علاقة الفرد بما عداه ، سواء أكان من البشر أم من سائر الكائنات ومقتضى الاصلاح تحقيق النماء وازالة العوائق التى قد تعترض تنفيذ القوانين الأزلية ، بحيث يستمر كل كائن فى مسيرته نحو الغاية من وجوده دون حدوث فجوة فى خط سيره ، ودون أن يعترضه ما يغير سمته ، أو يرجعه القهقرى •

وتفرض سنة الخلق عن طريق النسبية الوجودية قانونا يربط بين الاصلاح وفاعله ، فما من مصلح الا وترك الاصلاح فى نفسه أثرا ايجابيا يسمو به على نقائصه ويغريه بالقيام باصلاح جديد ، اذ الاصلاح استكمال ، والاستكمال فطرة غرزية ، وما من بشر الا وكره لنفسه النقص والنقيصة ، فاصلاح الغير موجب أصلا لاصلاح الذات ، وتلك آية من آيات وحدة الكائنات ، والخلافة بهذا المعنى تتضمن عنصرين متلازمين :

الأول : معنـــوى :

وهو السعى الدائب للاستكمال البشرى الذى فطر عليه النـــاس وذاك طريق السعادة ، وهو أيضا سبيل اشباع الغرائز المعنوية كلها ، اشباعا يرسى فى النفس البشرية المعانى التى تحقق ما يجب للخلافـــة من مقتضيات قيمية : كالعدالة والمساواة والمحبة والأمانة والقوة والقســـط فى القول والعمل وما اليها .

الثانى : مـــادى :

وهو ما تستوجبه الخلافة من حقوق وواجبـــات على الفرد ، اذ مدلول اللفظ يهدى الى تحديد نشاط الأفراد المنصب على ما استخلفوا عليه من طيبات وما يقومون به من أعمال فى نطاق القوانين التى يفرضها عليهم الاستخلاف ذاته .

وهكذا نجد ــ مثلا ــ الملكية بجميع صورها : خاصة وجماعيـــة وعامة ، مقيدة بقيود الحماية والاصلاح .

والحكم والحاكم والمحـــكوم وما يسن من تشريعـــات وقوانين جزئية ، كل أولئك مقيد بما يفرضه الاستخلاف من شروط .

والفرد فى أسرته وبين أقرانه وعشيرته وبنى وطنه وجلدته انما هو مستخلف يتصرف فى نطاق هذا القانون الأزلى الشامل .

وعلاقات الجماعات البشرية فيما بينها تبنى على أســـاس أن كل جماعة مستخلفة فى محيطها وليست بحكم وصفها أو تاريخها بأفضل من غيرها بحيث تدعى لنفسها الحكمة والوصاية أو الولاية على من عداها .

وهكذا نجد أن مبدأ الاستخلاف ــ وان كان ركنا أســـاسيا فى شرعة الاسلام وفلسفته ـ انما يستمد وجوده أصلا من مبدأ وحدة الخالق الذى بيده ملكوت كل شىء : فهو وحده مطلق المنفرد والمالك الواهب والمقدر المقنن ، وليس الانســـان ــ فى شمول جنسه ــ الا خليفـــة فطر بحكم خلقه على القوامة والاصلاح ، وهو يقوم بذلك نتيجـــة لما

حمل من أمانة عن وعى وادراك وشعور كمين عميق تجعله يحس بصلته بالكون وخالقه وبأبناء جنسه ، كما يستشعر معانى الاستكمال كلما أمعن فى العبادة واستقر فى قلبه الايمان ، ومرة أخرى : ليست العبادة فى جوهرها الا اتباع القوانين الأزلية المطردة .

٥ ـ المجتمع البشرى

يخاطب الاسلام الناس جميعا فمن اهتدى الى الحق واتبع شرعته فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وهو خارج على القوانين الأزلية ظالم لنفسه .

لقد ظل الانسان منذ خلقه يدأب على كشف الحقيقة الثابتة وهى دالة القانون الأزلى تدفعه الى ذلك فطرته الغريزية وما جبل عليه من رغبة لا تفتر الى الاستكمال البشرى يقينا منه ان ذاك هو طريق السعادة . والسعادة لفظ مبهم فى مدلوله ، ولكنه يتعلق فى أصله باشباع الغرائز المادية والمعنوية اشباعا مطرد الحركة متوازن القوى ، ويتوصل الانسان الى هذه الحال حين يتوحد الفرد فى أعماق ذاته داخل نطاق قانون الوحدة الخالقة ووحدة الكائنات ووحدة المجتمع الذى يعيش فيه .

أما المقصود بتوحد الفرد فى هذا المجال فهو : ألا تتشعب شخصيته وتتعارض تصرفاته اذ يحدث ذلك حين لا يستطيع الفرد أن يوائم بين وعيه وإرادته . بحيث لا ينقض أى قانون أزلى ، ويرجع ذلك عادة : إما إلى عجز الفرد عن هذه المواءمة ، وإما عن جهله بالقوانين التى تحكم تصرفاته ، وإما عن تغاضيه عنها أو نكرانه لها .

ولعل خير مثال نضربه لتوضيح هذا الانشعاب هو الانسان الذى يعيش فى ظل الحضارة المادية السائدة ، إذ يتجاهل الفرد فيها الغرائز المعنوية ويحاول ـ دون جدوى ـ أن يصل الى التوازن الذى يجلب عليه الأمن والسعادة ، انه يضل لأنه يستبدل قانونا من صنع يديه بالقانون الفطرى ، ويراعى فى قانونه اهدار القيم المعنوية واخضاعها لمتطلبات الغرائز المادية ووجه الضلال فى ذلك أن من يفعل ذلك يغالط نفسه :

اذ فى أعماق ضمير الفرد شعور فطرى بالقيم العليا مهما تنشىء على احتقارها ، فلن يستطيع أن يجحد أثرها ، بل سيظل ضميره يلح عليه كى يرجع إليها ، كما سيجد من تجربته الظالمة أنها تؤدى به الى ما فيه الاضرار به ، سواء أحدث هذا الاضرار فى صورة مادية أم معنوية ، وحينئذ يحس الفرد بالانشعاب والأزدواج : يقول ما لا يفعل ، ويقترف ما ينهى عنه ، ويحارب هدى عقله ، ويحبس صوت ضميره ، وقد يدعوه هذا الى اضرار جديد ، ويظل سامدا محمولا فى حلقته المفرغة ، إلا أن يقدر له الهدى والرشاد .

٦ ـ نشأة المجتمع :

جرت سنة الأزل على أن يجتمع فى جنس الكائنات الموجب والسالب أو الذكر والأنثى ، وباجتماع الصنفين يتكاثر الأحياء .

فالمجتمع البشرى ليس الا نتيجة طبيعية لسنة التكاثر الناتجة عن اجتماع الذكر بالأنثى ، يضاف الى ذلك عامل خاص ببنى آدم هو احتياجه منذ القدم الى التجمع نظرا لعوامل غرزية وبيئية ، والواقع ان المتمعن فيما ركب فى الانسان من غرائز يجد أنها لا تشبع الا بالتجمع ، فالمادى منها يحتاج الى نوع من التكتل والتعاون والتبادل لانتاج ما يحتاجه الانسان ، وما أكثر ما يحتاج . ولتأمين حياته ضد ما قد يصيبه من ضرر أو ما قد يعصف بأمنه وسلامته .

وكذلك الحال فى الغرائز المعنوية ، من انتماء الى حب ، الى تسام الى غير ذلك ، اذ يقتضى اشباع هذه الرغبات الفطرية أن يعيش المرء فى مجتمع انسانى ينتسب اليه ، ويتبادل فيه مع أقرانه عاطفة الولاء والمحبة ، بل أن الفرد لا يستطيع أن يعرف نفسه ما لم تنعكس صورتها على غيره من الناس ، وليس للاستكمال البشرى معنى ما لم يسند هذا الاستكمال الى مقياس مدارج السمو فى المجتمع المحدد الذى يعيش فيه الفرد .

كما أن البيئة التى يعيش فيها الفرد تدعوه الى تكوين مجتمعه ، سواء أعاش الانسان فى بيئة بدائية كما هى الحال فى حياة الصيد والرعى أم فى بيئة أكثر تقدما كما هى الحال فى حياة الزراعة والتجارة أم فى بيئة متحضرة كما هى الحال فى حياة الصناعة الكبيرة المكثفة .

فالمجتمع البشرى ضرورة تقتضيها ضرورة أبعد عمقا هى اشباع الغرائز الانسانية ، والتجمع أيضا انسياق مع قانون الوحدة الكونى ، لذلك كان الأصل فيه أنه خير وان كان ما قد يشوبه من عوارض توهن من ترابطه أو تعمل على تشتته فهو شر ، اذ مما لا شك فيه أن معيار الخير والشر فى أمر ما هو مقدار تمشيه مع القوانين الأزلية أو مفارقته لها .

وتذهب شرعة الاسلام الى أن الأصل فى التجمع البشرى هو فعل الخير وتحقيق الرفاهة وحسن القيام بالعبادة كما سبق تعريفها ، وليس صحيحاِ البتة : أن يفترض بغير دليل مقبول ان الانسان ما اجتمع بغيره من بنى جنسه الا ليستغلهم ويستعبدهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وان القوى فيهم آكل الضعيف لا محالة ، وان الصراع محتوم بين الأقوياء من جهة وبين الضعفاء والمستضعفين وان مسالك المجتمع هو الحاجة المادية التى تأسر الفقير وتضع عليه الأغلال .

ليس هذا كله صحيحا ، وليس صحيحا ما يستدل به عليه من أن حقبا فى التاريخ البشرى مرت وكان هذا الاستبداد والاستعباد الصفة الغالبة فى العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد اذ مع التسليم بقيام تلك الصور الظالمة فى تاريخ المجتمع البشرى ــ ماضيه وحاضره ــ فليس معنى ذلك أن تلك هى سنة الكون أو قوانين الفطرة ، اذ لو كان الأمر كذلك لما ثار الناس على هذه المظالم ولاستقرت تلك العلائق دون تغيير ، ولما كانت محل نظر ومدعاة الى الثورة عليها .

وفى شرعة الاسلام ان الانسان يولد على الفطرة السوية وأن المولود لا يتصف بالخير أو الشر ، ولئن كان من المقرر أن للوراثة أثرا على

المولود الا أنه من الحق أيضا أن نقرر أنه لو أحسن تربية هذا المولود لأمكن التغلب على آثار الوراثة التى تخالف قانون الفطرة ، كما أنه حق أيضا أن يقرر : أن انحراف الآباء عن جادة الهدى خطأ للمجتمع حظ فيه قل أم كثر وليس ذلك ببرهان على فساد الأساس الذى يبنى عليه أى مجتمع بشرى ، بل هو دليل على قيام قانون الوحدة فيه ، اذ وجود مرض يصيب أى عضو من أعضائه لا يقتصر على ذات العضو ولكنه يمتد منه إلى سواه ، وهو ما يعبر عنه بالتكافل بين أفراد المجتمع الواحد .

٧ ـ مساك المجتمع :

لن يتكون مجتمع سليم ما لم يتوافر فيه عنصران أساسيان :

الأول : وحدة العقيدة وسلامتها : اذ لو اختلفت العقيدة لاختلفت أنظار الأفراد الى قضاياهم فى حياتهم المعاشية ولاختلفت بالتالى أحكامهم عليها ، ويضاف الى هذا أن الجماعة البشرية السليمة لا تدب فيها الحياة الا أن توحد هدفها لدى العام والخاص من أفرادها ، فالعقيدة هنا بمثابة المذهبية التى ترمى الى تحقيق مثل أعلى يعتز به الفرد ويكرم به المجتمع ويسعى الجميع الى تحقيقه .

ومن هنا تتضح أهمية « سلامة العقيدة » فكم من مذهبية فاسدة أضلت أقواما اتبعوها وزادوا عنها بالأنفس والأموال ، وكم قاست البشرية من جراء العقائد الفاسدة التى اعتنقها الناس على مر التاريخ حتى يومنا هذا ، وان المتتبع لكتابات فلاسفة القرن العشرين فى العالم المادى ليجد التحذير الشديد من مغبة اعتناق العقيدة المادية ، وكثير منهم أولئك الذين يتنبأون بأنه ما لم يطرأ تغيير جوهرى على هذه المذهبية فانها ستجر معتنقيها الى هلاك لا نجاة منه .

وكلما رسخت العقيدة فى أذهان الناس واستقرت فى قلوبهم وأصبحت رمزا لأعمالهم وآمالهم كلما قويت الوشائج بين الأفراد وتزايد التعاطف بينهم وتوحد بالتالي مجتمعهم .

وكلما صحت العقيدة وقربت من قوانين الفطـرة كلما أفاءت على معتنقيها الخير والقوة والنماء ـ وبهذا لا تكون مشكلة الحكم على سلامة العقيدة فى المجتمع من التعقيد بحيث يعز حلها كما يتوهم ذلك كثير من الفلاسفة العرب ومفكريهم ، وإن كانت دون ريب من الأهمية فى بناء المجتمع بمكان •

فإن أخذنا بهذا المعيار للمذاهب والشرائع فسنجد أن شرعة الاسلام أصحها جميعا • فهى بحكم منطوقها المتطابقة تماما مع نواميس الكون ، المشتملة على قوانين الفطرة جميعا ، ما انصب منها على المادة أو ما تعلق بالروح •

والثانى : وحدة النظم :

ويعنى النظام sy stem فى هذا المجال مجموعة القواعد المستقرة فى مجتمع ما ، والتى تنظم وتحدد علاقات الأفراد بعضهم ببعض ثم علاقاتهم بالمجتمع ككل ، ثم علاقة مجتمعهم بسائر المجتمعات ، وبعبارة أخرى : يشمل هذا اللفظ ما يعبر عنه بالنظام الاجتماعى والنظام السياسى والنظام الاقتصادى والنظام الجمالى ، وهى الميادين الأربعة التى تضم نشاط أفراد أى مجتمع بشرى •

ان المقصود من وحدة النظم هو وحدة الفكر المنصب على النظر فى أى ناحية من هذه النواحى الأربع ، وانما يتأتى ذلك حين يتوحد الايمان بالشرعة أو المذهبية أو المثالية • وحينئذ يكون استخلاص قواعد النظم والأحكام التى تضبط المعاملات من قبلها ليس مجرد تقنين أو تشريع أو فلسفة بل تقرير لواقع يؤمن به الأفراد وترتضيه غالبيتهم وتسير عليـه الجماعة ، بوازع من الضمير قبل أن تطبقه خشـية من طائلة عقـاب القانون •

وغنى عن التفصيل أن نقرر : أنه حين تشتق هذه النظم من معين شرعة واحدة فستغلب عليها وحدة النظر الى الانسان فى مجتمعه ووحدة الحكم على تصرفاته ، وستكون القواعد التي تحكم تصرفاته فى مختلف

نواحي نشاطه وعلاقاته متجانسة متسقة ، تسعى كلها الى هدف واحـد هو تحقيق ما تنشده شرعته •

وبدون هذه الوحدة فى النظم : فلن يكون للشرعة وجود ، ولن تترك فى نفوس الناس الأثر المرجو ، بل ان انفصام النظم عن شرعتها وعدم توحدها يؤدى الى الفصل بين الشرعة أو العقيدة ، وبين الحياة البشرية فى نواحي نشاطها المتعددة ، وهذا يؤدى الى انشعاب شخصية الفرد وازدواجها والى هدر ما للقيم المعنوية من أهميـة فى معاملات النـاس وقلوبهم •

وحين تقرر شرعة الاسلام قانون « الوحدة فى الكون » وقانون « التناقص » فى الكائنات وحين تجعل ابن آدم « مستخلفا » لا يجوز له أن يستعمل سيادته على الكائنات الا فى حدود قواعد استخلافه من حماية ، الى استصلاح • وحين يجعل من ذلك كله سبيلا الى عبادة الخالق ومحاولة دائبة للاتصال به ، حين تقرر شرعة الاسلام هذا وما سـواه انما ترسم للفرد والمجتمع الخطوط الرئيسية للعلاقـات التى تقتضيها النسبية الوجودية متسقة مع ما ركب فى الفرد من غرائز قد تبـدو أو تكون ــ بغير هذا التنسيق ــ متعارضة أو متنافرة •

فالأثرة ــ مثلا ــ والإيثار صفتان مشتقتان من غريزتين أصليتين هما حب الذات والانتماء مع الحب • والأثرة تدعو الى تفضيل الذات على الغير والاستئثار بما تهواه النفس وبما تحسبه انه الخير لها والإيثـار على نقيض ذلك ، وكلا الأمرين مطلوب ، بل هو طبيعي بمقتضى متطلبات كل غريزة فطرية •

وهنا تتدخل أحكام الاستخلاف فتتوقف الأثرة عند حدود حماية المجتمع والبيئة وبشرط الاصلاح الذى يقتضى الاتساق والنماء وسرعان ما تلتقى حينئذ الأثرة بالإيثار ، وينعم الفرد ومجتمعه بنشاط الفرد الذى حفزته الأثرة ، ونتيجـة عمله الذى در خيرا على المجتمع الذى حققه ايثاره •

ولعل الملكية خير مثال يضرب لتوضيح أثر الشرعة الإسلامية فى توجيه غرائز الانسان وطاقاته الى غاية موحدة دون احتراب أو تضـاد ، اذ الملكية الخاصة مباحة فى حدود امتلاك ما هو حل للمسلم وبشرط أن يكون التملك عن طريق حلال ، وللفرد أن يملك ما استطاع وما شاء من الثروات على هذا الوجـه المشروع • ومع ذلك فملكيته فى أساسها خاضعة لقانون الاستخلاف فمن واجبه المقابل لملكيته أن يحافظ على ما تحت يديه من نعم الخالق وآلائه وأن يصلح من شأن ما ملك ، فان قصر فى واجبه انتقصه المجتمع من حقه بمقدار ما قصر •

من أجل هذا تقرر شرعة الاسلام ان مالك الأرض الذى لا يزرعها مع الحاجة الى غلتها ، عليه أن يمكن غيره من زراعتها ولا عائد له منها ، فله حق الرقبة (الملكية) وليس له حق الانتفاع الذى حققه غيره •

وتقرر أن للمجتمع أن يحجر على مال السفيه حتى لا يضيع ، بل انها تقرر أن من يحتجز ماله دون استعماله ، فعليه أن يزكيه ومن كان عنده فضل زاد أو دابة ، فليعد به على من ليس عنده طعام ولا دابة •

وتقرر شرعة الاسلام تطبيقا للاسـتخلاف أن الحاكم مستخلف على رعيته فهو ليس الأمير المطلق الذى يتصرف كيف يشاء فيما يشـاء ولكن حدود استخلافه تطبيق القوانين التى سنتها الشريعة والتى أقرها المجتمع بما رأى ضرورة اسـتحداثه ، وهو فى منصـبه السياسى أول الخاضعين لهذه القوانين وأول المنفذين •

وفى مجال الأسرة نرى الرجل مستخلف على أهله ، عليه أن يعاشرهم بالمعروف • وطاعة الزوج محدودة فى نطاق ما أمر الله به ، والزوجة بدورها مستخلفة فى بيتها وعلى أهلها : ترعاهم وتنفق من مال الزوج عليهم وذلك فى حدود ما كلفتها به الشريعة السمحاء •

وهكذا دواليك ما من تصرف انسانى فى المجتمع الا وصدر أصلا عن حق للفرد فى التصرف ، وواجب يقيد هذا الحق ، وكما تخضع الحقوق كلهـا لشروط اكتسـاب شرعيتها ، كذلك يخضع الواجـب لشرطى

الاستخلاف : الحماية والاصلاح • سواء أكانت الحقوق والواجبات مادية أم خلفية معنوية •

٨ ـ المجتمع المسلم :

المجتمع المسلم هو ذلك الذى يؤمن أفراده بشرعة الاسلام •

والايمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فالقضية ليست مجرد تصديق بغيب ، أو شعائر تؤدى تقربا الى الله زلفى ، ولكنها قضية واحدة ذات وجهين ، الأول : ايمان قلبى ، أو يقين روحى ، بوحدة الخالق وما له من صفات حسنى ، وبأن الدين عند الله الاسلام وأنه لحق اليقين وبالرسل جميعا ، وبخاتمهم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) •

أما الوجه الثانى : فهو العمل بمقتضى شرعة الاسلام ، اذ لن يصدق ايمان فرد مالم يكن عمله موافقا لهذه الشرعة الاسلامية التى تقوم على ما قدمنا من أركان تمس حياة الفرد فى كل زاوية من زواياها •

هذه الوحدة بين حياة المسلم الروحية وحياته المادية ، وهكذا التواؤم بين الروح والعقل ، وهذا المزج غير المنفصل بين الضمير والفعل ، هذا الشرط الأساسى هو أهم ما يميز شرعة الاسلام عن غيرها بميزة تضفى عليها الأفضلية من حيث المضمون ، والواقعية من حيث التطبيق•

أما أفضلية المضمون : فذلك أنها تجمع بين القيم المعنوية والنواحى التعبدية وبين عمل الفرد الحسى فى نطاق واحد ، وذلك حين تقرر أن العبادة عمل يصدق به الايمان •

وأما واقعية التطبيق : فذلك أن تلك الشرعة تراعى غرائز الانسان الحسية والمعنوية وتنسق بينها وتسمو بها ، فتأخذ بعين الاعتبار ان ما من عمل مادى إلا امتزج بشعور معنوى ، باد أو خفى ، فلا تحاول كبته فينقلب وبالا على صاحبه أو ينحرف به عن الجادة ، ولا تتجاهله بحيث يتحلل الفرد من القيم المعنوية دون شعور بإثم ما يقترف من الذنب •

الإيمان أصل وغاية .

والعمل تبع ووسيلة .

فالمسلم يؤمن بالله الواحد القهار ، يقضى حياته فى محاولة دائبة للاتصال بنوره واكتساب مرضاته ولا يتم ذلك الا عن طريق العمل الصالح واتباع شرعة الاسلام التى تقوم أساسا على قوانين الفطرة ، وهو فى هذا المسعى يؤدى واجب العبادة ، ويستشعر فى ذلك دواعى الأمن والسلام ، ذلك أن العمل الصالح : هو ما جلب على صاحبه وعلى المجتمع خيرا ورفاهية ، أو ما يدفع عنهما شرا وخسارة . والعمل الصالح يسهم فى زيادة « انتاجية » الفرد والمجتمع حتى لو كان نصيحة مقبولة من مسلم لأخيه المسلم .

على أن شرعة الاسلام لا تترك أمر الفرد فى الجماعة الاسلامية رهواً لا يحكمه الا رأى الفرد ذاته ، بل إنها تضع تفصيلات كثيرة تحد من تصرفات الأفراد وتصرفات المجتمع وتنظم العلاقات كلها فى اطار قوانين كلية وقواعد شرعية يلتزم بها الجميع فى نطاق الجوانب الأربعة للحياة البشرية :

العلاقات الاجتماعية .

والعلاقات السياسية .

والعلاقات الاقتصادية .

والقيم الجمالية (المعنوية والأخلاقية) .

ليس المقصود من هذا البحث تحديد العلاقات والقيم كل على حده ، انما المقصود معرفة الشرعة التى تستقى منها هذه العلاقات والنهج الذى يجب أن يتبعه الباحث حين يحاول الخوض فى أى ميدان من هذه الميادين الأربعة .

الواقع أن دراسة أى جانب من جوانب الحياة البشرية منفصلا عما عداه ليس بالأمر المستطاع نظرا لأنه لا يمكن عزل وجهة عن الوجهات الأخرى فالعلاقات الأجتماعية تتأثر بسائر العلاقات والقيم ، كما تؤثر فيها ، ومن المستحيل أن يتصور مثلا علاقة مادية اقتصادية لا ينفعل بها

« الشعور » بالقيمة الجمالية ، أو الحالة المعنوية أو الخلقية بطرفى هذه العلاقة . من أجل هذا تطورت دراسة العلوم الانسانية فى السنين الأخيرة بحيث يدرس الإنسان من جوانبه المختلفة فى آن واحد وإن ظلت الدراسات التفصيلية مستقلة فى تخصصها وبعدها عن غيرها من النواحى الانسانية الأخرى .

ذكرنا فيما سبق أن شرعة الاسلام تقرر وحدة الخالق ووحدة الكائنات ووحدة المجتمع البشرى ووحدة الفرد فى ذات الفرد .

وتقرر أن الكائنات جميعا تخضع فى وجودها لقانون النسبية الوجودية الذى يحدد علاقتها بعضها بالبعض ، وانها فى ذاتها تخضع لقوانين أخرى تحدد حركتها ونماءها .

وتقرر أن الانسان سيد المخلوقات بما وهب من أمانة تتضمن الوعى والإرادة ، والوعى يتضمن الادراك العقلى للمحسوسات ، والشعور المستتر الروحى بالقيم والمعنويات ، كما تتضمن الارادة مكنة الفرد فى أن يختار لنفسه بين ما هو خير (أى متسق مع قوانين الفطرة) وما هو شر (أى متعارض مع هذه القوانين) .

وتقرر أن الانسان لابد له أن يعيش فى مجتمع ، اذ يستحيل عليه البقاء بمفرده ، وهو فى تجمعه مدفوع بحكم غريزته ، والغريزة صورة من صور القوانين الأزلية ، أو الفطرية .

وتقرر أن الانسان مستخلف على كل ما فى الأرض ، اذ كل ما هو كائن فهو من خلق الله ، وهو وحده المالك ، وان الاستخلاف يفرض على الإنسان قيودا على حريته فى التصرف ، وهى قيود تؤدى إلى خير . ففيها الحماية والاصلاح ، كما يتضمن حكم كل ما يتعلق بالتصرفات البشرية المادية منها والمعنوية ، فيضع أسس المعاملات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، والقواعد الجمالية ، أما فى الناحية المعنوية : فالاستخلاف يرسم نطاق الاستكمال البشرى وآماد اشباع الغرائز المعنوية ويوجد الصلة والتوازن بينها وبين الغرائز الحسية .

وما أن يوجد المجتمع المسلم حتى يظهر أثر هذه الكليات فى دورة الحيـاة البشرية ، وحتى تمد الشرعة الاسـلامية هذا المجتمع بالكثير الجديد •

أولا : العمل :

العمل هو الوسيلة المباشرة لإشباع غرائز الانسان ، المادية منها والمعنوية ، والغرائز ضرورة ، وكل ما هو لازم للضرورة فهو ضرورة : سد الجوعة محافظة على البقاء ، ومزاولة الجنس ، حفظا للنوع ، وحرب المعتدين حماية للأمن وإبقاء على الذات ، كل هذا عمل لا محيص عنه وكله لازم لمقابلة الغرائز الفطرية فى البشر •

ثم ان الانتماء للجماعة يقتضى أن يبذل الفرد شيئا من وقته وماله وأن يضحى ببعض حـريته حتى يشـبع هذه الغريزة • وفى البـذل عمل ••

ومحبة الأهل والعشيرة تقتضى نوعا من التضحية المحببة والتضحية بذل لعمل •

وحب الذات أو أثرة النفس لا تتصـور إلا اذا عنت اختصـاص الانسان نفسه بنتيجة عمل •

والتسامى وحب التخليد لا يتوصل اليهما إلا بعمل •

فالعمل اذن ضرورة لازمة للحياة ، وليس كما يتوهم البعض أمرا خيـاريا قد يتأتى للمرء أن يستغنى عنه ، وثابت أن الذين لا يعملـون يكونون أقرب الى التلف والمرض والهلاك من العاملين ، وتلك سـنة فطرت الكائنات عليها •

من أجل هذا تقرر شرعة الإسلام : ضرورة العمل على من يستطيعه ، وتحدد صفة مشتركة فى كل عمل ، وهى التى يقتضيها الاستخلاف ويعنى بها الاصـلاح • فالعمل الصالح هو المنشـود فى المجتمع المسلم وهو

ما تتطلبه شرعة الأسلام ، وهو ما يؤجر ويثاب الانسان عليه • أما العمل الطالح ، أى الذى يضر بالفرد أو بالمجتمع أو بهما سويا فذلك منهى عنه وجزاؤه العقاب •

ثانيا : مساواة : تامة كاملة بين الناس جميعا من حيث هم من خلق الله ، فلا تمييز فى الاسلام بين جنس وجنس ، أو لون وآخر ، وبين قوم وقوم • انهم جميعا على قدم المساواة من حيث انسانيتهم وانما يتمايزون بصالح العمل •

وجدير بالذكر أن نثبت ما قرره الاسلام من شموله لكافة الخلق وما جحده من عصبية أو وطنية أو عشيرية أو جنسية يعتد بها صاحبها على غيره ، فالأوطان كلها أرض الله والانسان مستخلف عليها ، والعشيرة أو القوم « المواطنون » أناس من خلق الله ولدوا وانتسبوا الى أرض الله ، والأجناس كلها من صنعه يتمايزون شكلا ولونا لاختلاف البيئات الجوية والجغرافية التى نشأوا وتوالدوا فيها ، والمساواة فى شرعة الاسلام ليست تجريدا وقيمة معنوية دون حدود أو ضوابط ، وانما هى أمر ينعكس على الكفالات التى تقررها الشريعة حين يفرض التكافل بين أفراد المجتمع الانسانى ، وحين تضمن للانسان — من حيث هو انسان يعيش بين المسلمين — مستوى لائقا لحياته المعيشية المادية حتى تحفظ عليه كرامته التى وهبها الخالق له يوم خلقه وحتى يسعى بين الناس وقد تساوت رأسه برأس من هو أكثر جاها أو غنى أو أقوى جسدا •

والناس كلهم سواء أمام الخالق وأمام الشرعة الاسلامية فيما تفرضه من قوانين ، لا تمايز بين حاكم ومحكوم ، ولا بين عالم وجاهل ولا بين مسلم وكتابى الا ما استثنى بنص ، أو ما فى حكمه •

ثم ان ميزان المساواة قائم بالقسط فى كل العلاقات بين الأفراد اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية ، وهنا أيضا تأخذ المساواة شكلا تنفيذيا ايجابيا بالتقرير والتقنين وسلبيا بالنهى والعقاب •

ثالثا : عدل شامل : ينتظم كل أحكام المعاملات ، والعدل قرين المساواة ، اذ هو بدوره لا يقر التمايز • والا انقلب ظلما وحيفا •

والعدل فى شرعة الاسلام على نوعين :

(أ) عدل فى الحكم اذا نشب نزاع بين طرفين فى المجتمع المسلم ، ومحله القضاء ، وليس فى شرعة الاسلام من يعلو على الخصومة مهما سما مركزه ، وذلك غاية آيات المساواة ، فالحاكم والمحكوم على مستوى واحد أمام القاضى •

(ب) عدل فى التكليف والتقنين والتنفيذ ، اذ الاسلام يعطى الحاكم حقوقا ويفرض عليه واجبات ، وعلى الحاكم أن يعدل فى تكليف الناس بما هو حق له ، ويجب أن تكون أوامره (قوانينه) عادلة بالنسبة للرعية كلها لا يحابى طبقة على حساب طبقة ولا فردا على حساب آخرين ، ثم عليه أن يعدل فى تنفيذ ما وكل اليه انفاذه ، فيعامل الناس كلهم معاملة واحدة لا تفضيل ولا تنكيل •

رابعا : تكافل :بين أفراد المجتمع جميعا على اختلاف درجاتهم ونزعاتهم ، والمقصود بالتكافل ايجاد رابطة شرعية مقررة تلقى على عاتق كل فرد مسئولية معينة قبل غيره فى نطاق عنصرى المساواة والعدل ومتطلبات المجتمع • وليس فى تاريخ البشرية كلها تكافل يعدل ما جاءت به شريعة الاسلام • ويكفى أن نقرر فى هذا المقام أن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم ، فان أجار هذا الأدنى عدوا مقاتلا جازت إجارته وعصم دم العدو حتى يحله المسلم من عهده •

وأساس التكافل راجع الى وحدة المجتمع أصلا ، اذ يتكون المجتمع من سلسلة مكونة من حلقات متعددة ، هى أفراده ، فان وهنت حلقة وهنت السلسلة كلها ثم أن قانون الاستخلاف يقضى بأن المال أصلا لله ، وان على صاحبه المستخلف واجبا نحو مجتمعه ، وهذا الواجب هو احدى صور التكافل الاسلامى •

خامسا : الجزاء : يقتضى تطبيق المبادىء الأساسية السابقة أن ينال المرء جزاء ما قدمت يداه • وتقوم فلسفة الجزاء فى شرعة الاسلام على الأسس الآتية :

(أ) لا جزاء بلا عمل ، ولا عمل بلا جزاء ، ولكل امرىء ما اكتسب •

واذ كان العمل فطرة فى الناس ، وناموسا فى الحياة ، فان العدل يقتضى أن يحصل العامل على نتيجة عمله ، والناس — فى هذا — كلهم متساوون ٠

ولا يَرِدُ على هذه القاعدة من حد ، إلا ما يقرره مبدأ التكافل ٠ وهو — كما ذكرنا — مستند على الاستخلاف ، لذلك فان من حق العاجز عن الكسب لسبب خارج عن طوقه أن يأخذ من مال الغير ما يحفظ عليه كرامته الانسانية ٠

كذلك تأبى شرعة الاسلام أن ينال صاحب المال جزاء على مجـرد ملكيته لماله ، فذلك مناف للعدل ٠ ومن هنا حرم الربا ، وما فى حكمه من صور استغلال عمل الغير لفائدة صاحب المال ٠

(ب) للعامل الحق الكامل فى جزاء عمله باستثناء ما تفرضه الشريعة من الزكاة وما تفرضه الدولة على المال مقابلة الحاجات الجماعيـة التى تختص الدولة بالقيام عليها ٠

وشرعة الاسلام تقر المجتهد ٠ وتبارك عمله ، وتجيز له الحصول على جزاء اجتهاده وان كثر ، فالتفاوت فى الثروات أمر راجع الى تفاوت الجهود المبذولة فى سبيل الحصول عليها ٠ على أن الفقر والغنى الماديين ليسا المعيار الأصلى لمنزلة الناس فى مجتمعهم الإسلامى ولكن المعيـار هو العمل الصالح كما بيناه من قبل ٠

(جـ) هناك فوق جزاء الدنيا جزاء الآخـرة ٠ فالمسلم الحق يؤمن عن يقين أن الحياة ممتدة الى ما بعد الممات ، وان قانون الجزاء قانون أزلى ، يسرى فى هذه الدنيا كما يسرى فى الآخرة ، فهو حين يسعى فى هذه الأرض إنما يبتغى وجه الله ، ويرجو جزاء الآجلة ، رجاءه جـزاء العاجلة ٠ وهذا عنصر روحى من أهم ما يتميز به المجتمع الإسلامى ، وهو سر قوته فى ماضيه وحاضره ومستقبله ٠

هذا ما عنّ لى أن أقدمه كمحاولة أدرك ما فيها من قصور ، وان عجزت عن استكماله ، فلست أقلل من شأنه ٠ ولكنها محاولة مجتهد يأمل أن يجد فيها القارىء ما قد يصلح أساسا لما هو أفضل وأكمل ٠

ولله الشكر والمنة ٠

المصادر الأصلية للمعرفة في الإسلام

العقل والوحي

محمد المبارك

لمعرفة الحقائق في الاسلام مصدران أو أداتان . ولكن يختص كل واحد منهما بنوع من الحقائق . وفيما يلي بيان ذلك بالاستناد الى نصوص الاسلام نفسه :

١ ـ العقل (استعملت مشتقاته في الإسلام «يعقلون» كما استعمل تفكر ومشتقاتها . ولم يستعمل العقل والفكر «المصدرين») واختصاصه النظر في ملكوت الله : في السموات والأرض أي في الكون وحوادثه ودليل ذلك أوائل وأواخر كثير من الآيات المتعلقة بالكون وحوادثه وحديث تأبير النخل الصحيح مؤيد لذلك . ويعين العقل الحواس من السمع والبصر والتجربة . ودليل ذلك ما في القرآن من آيات الكون من ألفاظ السمع والبصر والرؤية والنظر ومشتقاتها : يسمعون يبصرون أو لم يروا ، انظروا ، أفلا ينظرون ... الخ وأما التجربة فحديث النخل دليل وخاصة في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن كان يصلح فافعلوا » بعد إخفاق التجربة الأولى .

٢ ـ العقل دليل مرشد للمصدر الثاني وللتحقق من صحته وسلامته والمصدر الثاني هو الوحي الى الأنبياء الذين اختارهم الله .

فالعقل هو الطريق لإثبات نبوة النبى الصادق ، ورد نبوة المتنبىء الكاذب . ودليل ذلك استعمال الأدلة القرآنية فى القرآن لاثبات نبوة الأنبياء جميعا وخاصة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

ولكن العقل ليس له وضع ما يجيىء به النبى موضع الشك والتحقيق فى صحته لخروج ذلك عن اختصاصه . ولأن الوحى هو مصدر مباشر للحقائق من مصدرها وهو الله سبحانه ، فدرجة اليقين فيه أعلى من اليقين الحاصل عن طريق العقل .

٣ ـ الوحى إلى الأنبياء : وهو التعليم أو الإخبار الآلهى المباشر لهم بطريق لا مجال كذلك للعقل ليعرف كنهها ولكنه يستطيع معرفة قرائنها وآثارها .

وباعتبار أن من شروط النبوة : الصدق وسلامة العقل ، فاخباره عن الخبر الآلهى لا مجال للشك فيه . والأصل فى اختصاص الوحى ـ كما اقتضت حكمة الله ـ الاخبار عن حقائق عالم الغيب مما يريد الله تبليغه الى البشر واخبارهم به كالحياة الآخرة وأحوالها وصفات الله تعالى ، التى لا تدرك بالعقل مباشرة ، وكالإخبار عن بداية الخلق والمصير .

ومن اختصاصه كذلك معرفة القيم المطلقة فى الخير والشر سواء أكان ذلك مما يستطيع ادراكه بالعقل أم لا ، والغالب أن يكون ادراك العقل له حين يدركه خاصا غير عام . وقد يحتاج إلى عصور طويلة وتجارب كثيرة .

وهذه عين القضية التى عبر عنها السلف من المتكلمين باسم قضية (الحسن والقبح) وكونهما عقليين ، أم شرعيين ، أو عقليين والشرع كاشف ، أو غير ذلك من الأقوال ؟ ويدخل فى هذا الباب جميع ما أتى فى الشرع من الأحكام الثابتة القاطعة فى الحلال والحرام فى باب الأخلاق والمعاملات (النظم) .

كحرمة لحم الخنزير والخمر والقمار والزنا والربا والحكم بحل الزواج ووجوب الزكاة والوفاء بالعقود وأمثال ذلك . مما ورد فى

الكتاب اطلاقا ، والسنة فى أحوال منها ، وهى التى أريد لهـا التشريع الدائم • لأن السنة قد تكون من قبيل السياسـة الشرعية الزمنية • أو كالعقوبة المحددة فى السنة حينما تكون من قبيل التعزير لا الحد • فهذه كلها لا مجال فيها ـ بعد ايمان المرء بالنبوة ـ لوضعها فى موضع الشك • وكل ما يستطيع العقل أن يفعله : هو استخراج الحكمة • على أن يكون مجرد اجتهاد ورأى قابل للخطأ والصواب ، وبالتالى للنقض والتغيير •

ويدخل فى اختصاص الوحى تحديد العبادات التى أمر الله عباده بها ، فهى كما يقول علماؤنا ، توفيقية ، وتعبدية ، لا مجال فيها إلا لتنفيذ الأمر بالكيفية التى ورد الشرع بها عن طريق الوحى أو عن طريق من أمره الله بتبليغ الوحى وهو النبى صلى الله عليه وسلم

ونزيد على ما تقدم أن كل ما ورد عن طريق الوحى ، ودل النص دلالة قاطعة عليه ، ولا مجـال فيها للتفسير والتـأويل ـ ولو كان من اختصاص العقل ـ فالوحى أولى به • لأنه الطريق الأوثق ، والأكثر دلالة على اليقين الذى لا خطأ فيه •

ولكن المشكل فى الدلالة القاطعـة على المعنى الظاهر • فكثير من الآيات تورد من المعانى ما هو قائم فى نفوس المخاطبين لمجرد الاستدلال أو الاعتبار أو الاستشهاد • لا على ما هو فى حقيقة الأمر لعدم الحاجة اليه (يرجع إلى باب الكتاب فى الموافقات للشاطبى فقد شرح هذه الفكرة شرحا وافيا)

٤ ـ هناك مواطن يشـترك فيها الوحى والعقل معا • فالوحى يضع معالمها الأساسية وخطوطها الكبرى وقواعدها العامة ، ويترك للعقل تفصيلها ، أو يذكر حكما ويترك للعقل القياس عليه • وهذا باب فى غاية الأهمية وجهله أو تجاهله يوقع صاحبه فى خطأ كبير ويبعده كثيرا عن فقه الدين • ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ومثال ذلك (الشورى) الواردة أساسا للحكم فى القرآن و (العقود) كذلك و (الحق فيما سوى الزكاة) الوارد فى الحديث • ففى جميع هذه المواطن ترك الوحى للعقل تفصيلها بدلالة السنة القولية ، والفعلية ان وجدت •

وهذه قاعدة تقتضى الاستقصاء لجميع أحوالها وضوابطها لئلا يطغى فيها العقل على الوحى وهو طريق اليقين ، وحتى لا ينسب إلى الوحى ما أريد له فى السنة أحوال خاصة بعصر النبى صلى الله عليه وسلم باعتباره ولى الأمر أو القاضى .

وفى كل هذه الأحوال السابقة ، الوحى هو الأساس ، والعقل هو أداة التنفيذ والتكييف والتطبيق .

هذا ما بدا لى فى موضوع مصدرى المعرفة الأصليين ، دون المصادر الفرعية المتفرعة عنهما ، وفى العلاقة بينهما كذلك ، وفى تخصص كل منها بنوع من الحقائق ، أو اشتراكهما اشتراكا منسقا كذلك . وفقنا الله تعالى لفقه كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووفقنا لحسن العمل بهما ، وجعل العمل فى ذلك خالصا لوجهه ، وجزى العاملين بفضله ومنه أفضل الجزاء . والحمد لله رب العالمين .

أفعال الرسول فى الأمور الدنيوية

د . محمد سليمان الأشقر

نعنى بالأمور الدنيوية ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم بقصد تحصيل نفع فى البدن أو المال ، له أو لغيره ، أو دفع ضرر كذلك ، أو ما دبره فى شأن نفسه خاصة أو شئون المسلمين عامة ، لغرض التوصل الى جلب نفع أو دفع ضرر .

ويشمل هذا النوع من الأفعال الأضرب التالية :

الضرب الأول : الأفعال الطبية ، وهى ما يجريه على بدنة خاصة ، أو أبدان غيره من الناس بقصد دفع مرض حاضر أو متوقع .

فقد تناول النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أعطى غيره ، أطعمة وأشربة متنوعة ، على سبيل حفظ الصحة ، أو لدرء أمراض معينة ، كألبان الابل وأبوالها [1] .

وكذلك تعاطى وعاطى أنواعا مختلفة من العلاج ، فقد احتجم

---

(١) البخارى ١٠/١٧٨ .

واستعط [٢] ، وكانت حجامته فى وسط رأسه [٣] . وكانت حجامته من شقيقة كانت به [٤] .

ولما اشتد به وجعه أهريق عليه من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن [٥] . ولما جرح بأحد ، ألصق على جرحه رماد حصير محترق ليرقأ الدم [٦] . وداوى بريقه مع تراب ، وقال « تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يشفى سقيمنا ، باذن ربنا »[٧] .

ورفض أدوية معينة كاللدود [٨] .

الضرب الثانى : الأفعال فى الزراعة ، بأن يزرع أنواعا معينة من النبات ، أو يزرع بطريقة ما ، أو يسقى المزروعات كذلك ، أو يفعل بالنبات شيئا بقصد تكثير انتاجه أو تحسينه أو نحو ذلك .

وشبيه بها ما يفعل بالحيوان بقصد تكثير انتاجه وتحسينه ، كاطعامه أعلافا معينة ، أو المزاوجة بين سلالات منه مختلفة بقصد الحصول على نسل أجود .

الضرب الثالث : الصناعة ، بأن يصنع بمادة شيئا ما ، بقصد تحويلها الى شكل ذى أوصاف مخالفة لشكلها الأول ، لتكون أنفع ، أو يحلل مادة ما الى حالات أبسط ، أو يركب مادة مع مادة بقصد الحصول منهما على مادة جديدة ، هى أنفع من الأصل .

الضرب الرابع : التجارة ، بأن يعمل فى البيع والشراء ، فى أشياء معينة فى ظروف معينة ، بقصد تحصيل مكسب من فروق الأسعار .

الضرب الخامس : أنواع أخرى من المكاسب كرعى الغنم ، أو العمل للغير بأجر .

---

(٢) البخاري ١٠/١٤٧ .
(٣) البخارى ١٠/١٥٢ .
(٤) البخاري ١٠/١٥٣ .
(٥) البخارى ١٠/١٦٧ .
(٦) البخارى ١٠/١٧٤ .
(٧) البخارى ١٠/٢٠٨ .
(٨) حديث اللدود : البخارى ١٠/١٦٦ واللدود ماسقى من الدواء بالمسعط فى الفم (اللسان) .

الضرب السادس : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الحرب من استعمال المجانيق والسيوف والرماح والسهام وتربية الخيل للقتال وحفر الخنادق وترتيب الجيوش وتدريبها .

الضرب السابع : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الادارة المدنية، من اتخاذ الولاة والكتاب والحراس والحجاب والسفراء ، وكذلك الأعلام والشعارات ، والمرافق من الطرق والحصون وغيرها[٩] .

فهذه الأضراب وأمثالها قد وقع من النبى صلى الله عليه وسلم الكثير من أفرادها ، ونقل الينا أشياء من ذلك .

والنظر فى الأحكام التى يمكن أن تدل عليها مثل تلك الأفعال من وجهين :

الوجه الأول : أصل الطب والزراعة ، والصناعة والتجارة ، والقصد الى تحصيل المكاسب ، والسعى لتحقيق التدابير المدنية والعسكرية المناسبة ونحو ذلك ، يستفاد من فعله صلى الله عليه وسلم فى ذلك اباحته ، وأنه لا يخالف العقيدة ولا الشريعة . وقد يترقى الى درجة الاستحباب أو الوجوب بحسب الأحوال الداعية اليه .

وفى الحديث القولى اشارة الى ذلك حيث قال صلى الله عليه وسلم[١٠] « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ومن قال فى الأمور الجبلية التى فعلها صلى الله عليه وسلم أنه يستحب لنا التأسى بها ،فكذلك يقول هنا ، ومن ادعى الوجوب فكذلك. الا أن القول بأن الأصل فيها الاباحة أصوب كما تقدم فى أفعال الجبلة الاختيارية .

الوجه الثانى : الأمر الذى عمله بخصوصه ، هو مباح له وقد يكون مستحبا له أو واجبا عليه لاعتقاده صلى الله عليه وسلم أنه هو المؤدى الى غرض مستحب أو واجب .

---

(٩) انظر الكتاب القيم فى تفاصيل ذلك : التراتيب الادارية لمؤلفه عبد الحى الكتانى . نشرته ببيروت ، دار احياء التراث العربى ، صورة بالاوفست .

(١٠) رواه البخارى ٣٠٣/٤ .

ولكن هل يكون حكم مثله بالنسبة الينا كذلك ، كما لو شرب دواء معينا لعلاج مرض معين ، فهل يستحب لنا شرب ذلك الدواء لذلك المرض ، أو يجب ، بل هل يباح بناء على ذلك أم لا ؟

هذا ينبني على أصل ، وهو أن اعتقاداته أو ظنونه صلى الله عليه وسلم فى الأمور الدنيوية هل يلزم أن تكون مطابقة للواقع ، بمقتضى نبوته ، أو أن هذا أمر لا صلة له بالنبوة ؟ اختلف العلماء فى ذلك على مذهبين :

المذهب الأول : انه صلى الله عليه وسلم معصوم من خطأ الإعتقاد فى أمور الدنيا ، بل كان كل ما يعتقده فى ذلك فهو مطابق للواقع .

ولم نجد أحدا من قدماء الأصوليين ، صرح بمثل هذا المذهب .

ولكنه لازم لمن جعل جميع أفعاله صلى الله عليه وسلم حجة حتى فى الطبيات والزراعة ونحوها . وهو لازم أيضا لمن صحح منهم أن تقريره صلى الله عليه وسلم لمخبر عن أمر دنيوى يدل على صحة ذلك الخبر ، كما فعل السبكى وأيده المحلى والبنانى [11] .

والذين عند حصرهم أقسام الأفعال النبوية ، لم يذكروا الفعل النبوى فى الأمور الدنيوية ، كقسم من أفعاله لا دلالة فيه ، يظهر أنهم يقولون بهذا القول ، اذ يلزمهم أن يكون فعله صلى الله عليه وسلم فى الطب مثلا دليلا شرعيا . من هؤلاء مثلا أبو شامة ، والسبكى ، وابن الهمام ، وغيرهم .

وابن القيم فى كتابه (الطب النبوى) [12] يذهب الى حجية أفعاله صلى الله عليه وسلم فى الطب ، فيلزمه القول بهذا المذهب .

ويظهر أن هذه طريقة المحدثين ، فانا نجد عند البخارى مثلا هذه الأبواب ، ولم يذكر فيها من الأحاديث الا أحاديث فعلية (باب السعوط)

---

(١١) أنظر جمع الجوامع وشرحه وحاشيته ٢/١٢٧ ، ١٢٨ وأيضا ٢/٩٥

(١٢) هو بعض كتابه المشهور (زاد المعاد فى هدى خير العباد) وقد طبع أيضا مفردا .

(باب أى ساعة يحتجم) (باب الحجامة فى السفر) (باب الحجامة على الرأس) (باب الحجامة من الشقيقة والصداع) [١٣] وعند غيره من المحدثين ، كأصحاب السنن تبويبات متشابهة . ويوافقهم الشراح غالبا على ذلك ، فيذكرون استحباب أدوية معينة ، لأمراض معينة ، بناء على ما ورد فى ذلك من الأفعال النبوية .

المذهب الثانى : أنه لا يجب أن يكون اعتقـــاده فى أمور الدنيا مطابقا للواقع ، بل قد يقع الخطأ فى ذلك الاعتقاد قليلا أو كثيرا . بل قد يصيب غيره حيث يخطىء هو صلى الله عليه وسلم .

قالوا : وليس فى ذلك حط من منصبه العظيم الذى أكرمه الله به ، لأن منصب النبوة منصبٌ على العلم بالأمور الدينية ، من الاعتقاد فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والأمور الشرعية . أما اذا اعتقد أن فلانا مظلوم فاذا هو ظالم ، أو أن دواء معينا يشفى من مرض معين فاذا هو لا يشفى منه ، أو أن تدبيرا زراعيا أو تجاريا أو صناعيا يؤدى الى هدف معين ، فاذا هو لا يؤدى اليه ، أو يؤدى الى عكسه ، أو أن تدبيرا عسكريا أو اداريا سينتج مصلحة معينة ، أو يدفع ضررا معينا ، فاذا هو لا يفعل ، فان ذلك الاعتقاد لا دخل له بالنبوة ، بل هو يعتقده من حيث هو انسان ، له تجاربه الشخصية ، وتأثراته بما سبق من الحوادث ، وما سمع أو رأى من غيره مما أدى الى نتائج معينة ، فكل ذلك يؤدى الى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشر ، ثم قد ينكشف الغطاء فاذا الأمر على خلاف ما ظن أو اعتقد .

وقد صرح بأصل هذا المذهب دون تفاصيله القاضى عياض [١٤] والقاضى عبد الجبار الهمدانى المعتزلى [١٥] والشيخ محمد أبو زهرة[١٦]

---

(١٣) صحيح البخارى ١٠/١٤٥ ــ ١٥٢ .
(١٤) الشفاء ٢/١٧٨ .
(١٥) المغنى ١٧/٢٥٦ حيث جعل من شرط الاقتداء بالفعل « أن يكون مما له مدخل فى الشرع ولا يكون جعل مما يفعل للمنافع والمضار » .
(١٦) كتابه : تاريخ المذاهب الفقهية ص ١٠ .

وظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كغيره من الناس فى ذلك ، بل فيه التصريح بأن أصحاب الخبرة فى صنائعهم وتجاراتهم وزراعاتهم قد يكونون أعلم منه بدقائقها . الا أن القاضى عياض جعل الخطأ فى ذلك نادرا ، لا كثيرا يؤذن بالبله والغفلة [17] .

ويحتج لهذا المذهب بأدلة منها :

أولا : حديث تأبير النخل ، ففى صحيح مسلم عن رافع بن خديج أنه قال « قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فاذا هم يأبرون النخل فقال : « ما تصنعون ؟ » قالوا : كنا نصنعه . قال : « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا » فتركوه ، فنفضت ، فذكروا ذلك له . فقال : « انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر »

وفى رواية طلحة ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أظن ذلك يغنى شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فانى لن أكذب على الله » وفى رواية أنس : « أنتم أعلم بدنياكم » [18] .

وشبيه به حديث ابن عباس فى قصة الخرص [19] « وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسى فانما أنا بشر » .

وقد رد الاستدلال بهذا الحديث ، بأن المراد : أنتم أعلم بدنياكم من أمر دينكم [20] ويكون توبيخا لهم .

---

(١٧) الشفاء ١٨٠/٢ .

(١٨) راجع لروايات هذا الحديث : صحيح مسلم ١٨٣٥/٤ ومسند أحمد ١٥٢/٣ .

(١٩) ذكره القاضى عياض : الشفاء ١٧٨/٢ ولم يعزه .

(٢٠) البنانى : حاشيته شرح جمع الجوامع ١٢٨/٢ وأيضا : على القارى: شرح الشفا .

وسياق الأحاديث على اختلاف رواياته يأبى هذا التأويل ويبطله .

ثانيا : حديث أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال [٢١] : « انما أنا بشر ، وأنكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار » .

وفى رواية الزهرى للحديث المذكور [٢٢] : « انما أنا بشر ، وانه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فاحسب أنه صادق ، فأقضى له بذلك » .

اذا ثبت الأصل الذى ذكرناه آنفا ، فانه ينبنى عليه أن ما فعله صلى الله عليه وسلم فى أمور الدنيا مما مرجعه الى تجاربه الخاصة ، وخبرته الشخصية ، وتفكيره وتقديره فى الأمور الدنيوية التى ليس لها علاقة بالدين ، لا يدل على مشروعية ذلك الفعل بالنسبة الى الأمة .

وممن صرح بهذه القاعدة بصفتها العامة من الأصوليين القدامى القاضى عبد الجبار [٢٣] .

وصرح به حديثا ولى الله الدهلوى [٢٤] ومحمد أبو زهرة [٢٥] ، وعبد الوهاب خلاف [٢٦] ،وعبد الجليل عيسى [٢٧] ،وفتحى عثمان[٢٨].

---

(٢١) البخارى ١٣/١٥٧ وأصله عند مسلم وأبى داود .

(٢٢) البخارى ١٣/١٧٢ .

(٢٣) المغنى ١٧/٢٦٩ .

(٢٤) حجة الله البالغة ١/٢٧٢ .

(٢٥) كتاب : تاريخ المذاهب الفقهية . ص ١٠ .

(٢٦) كتابه : أصول الفقه ص ٤٣ .

(٢٧) اجتهاد الرسول .

(٢٨) الفكر القانونى الاسلامى بين اصول الشريعة وتراث الفقه ، لقاهرة ، مكتبة وهبة (د . ت) ص ٦٨ .

أما من حيث التفصيل فقد وضحه ابن خلدون فى المقدمة ، فى شأن ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى شأن الطب ، حيث قال :

« الطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل — يعنى طب البادية المبنى على تجارب قاصرة — وليس من الوحى فى شىء ، وانما هو أمر كان عاديا للعرب ، ووقع فى ذكر أحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، من نوع ذكر أحواله التى هى عادة وجبلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات . وقد وقع له فى شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال : أنتم أعلم بأمور دنياكم . قال : فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث المنقولة على أنه مشروع . فليس هناك ما يدل عليه . اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايمانى فيكون له أثر عظيم النفع ، وليس ذلك فى الطب المزاجى » أ هـ [٢٩] .

رأينا فى ذلك :

نختار المذهب القائل بأن أفعاله الدنيوية ليست تشريعا ، وذلك لاجل الأدلة الآتية :

١ — قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ) وقوله (قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) وقد تكرر التأكيد فى الكتاب على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وإنه ليس إلها ولا ملكا ولا يعلم الغيب . ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لما نبأه الله عز وجل ، لم يمنعه من تصرفاته البشرية كما يتصرف غيره من الناس على غالب الظنون والتقادير التى تخطىء وتصيب ، ولا تعهد له بأن يمنعه من الخطأ فى ذلك ، فالأصل استمرار حاله فى ذلك كما كان قبل النبوة ، لما لم يدل على انتقاله عن ذلك دليل .

وقد أكدت السنة النبوية ما بينه القرآن من ذلك ، كما يأتى :

---

(٢٩) المقدمة ص ٤٩٣ .

٢ ـــ قوله صلى الله عليه وسلم : « انما أنا بشر فاذا أمرتكم بأمر دينكم فاقبلوه • واذا أمرتكم بشيء من دنياكم فانما أنا بشر » • وفى رواية : أنتم أعلم بدنياكم • وقد تقدم هذا الحديث •

وبهذا الحديث ، برواياته المختلفة ، يؤصل النبى صلى الله عليه وسلم أصلا عظيما فى الشريعة ويبينه لنا ، ويشعرنا بأن بعض أفراد الأمة قد يكونون أحيانا أعلم منه صلى الله عليه وسلم بما يتقنونه من أمور الدنيا ، والمقصـــود أهل الخبرة فى كل فن وصناعة ، وأنه لا داعى شرعا لالتفاتهم الى ما يصدر عنه صلى الله عليه وســـلم من ذلك الا كما يلتفتون الى قول غيره من الناس •

٣ ـــ ما ذكر ابن اسحاق فى سيرته [٣٠] ، فى سياق غزوة بدر ، قال : حدثت عن رجال من بنى سـلمة ، أنهم ذكروا أن الحبـاب ابن المنذر ، قال : يا رســول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحـرب والمكيدة • فقال : يارسول الله • فان هذا ليس بمنزل •فانهض حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله • ثم نغور ما وراءه من القلب • ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون• فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى •

٤ ـــ ما ورد فى الحديث أن نفرا دخلوا على زيد بن ثابت ، فقالوا له : حدثنا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كنت جاره ، فكان اذا نزل عليه الوحى بعث الى فكتبته له ، فكان

---

(٣٠) سيرة ابن هشام ، وعليها الروض الانف للسـهيلى ، بتحقيق عبد الرحمن الوكيل • القاهرة دار الكتب الحديثة (د • ت) ٩٧/٥ •

أذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وأذا ذكرنا الأخرة ذكرها معنا ، واذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣١] .

٥ ــ ما ورد عن هشـــام بن عروة ، ان عـــروة بن الزبير كان يقول لعائشـــة [٣٢] « يا أماه ، لا أعجب من فهمك ، أقول : زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت أبى بكر . ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس : أقول : ابنة أبى بكر ، وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس . ولكن أعجب من علمك بالطب ، كيف هو ومن أين هو ؟ » قال : فضربت على منكبه ، وقالت : « أى عريّة ! ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يســـقم عند آخر عمره ، أو فى آخر عمره . فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه ، فينعتون له الأنعات ، وكنت أعالجها له » .

مسائل متممة لبحث الأفعال النبوية الدنيوية :

المســـألة الأولى :

اذا انضم الى الفعل الدنيوى قول آمر ، فذلك يخرج الأمر من باب الأفعال ويعود النظر الى الدليل القولى ، وذلك خارج عن موضوع بحثنـــا .

وليت بعض الباحثين يتولى بحث الأقوال النبوية المتعلقة بالأمور الدنيوية ليصل فى شأنها الى قول فصل ، ثم يجمعها من كتب الحديث وينص على ما يصح استفادته منها من الأحكام وما لا يصح .

المســـألة الثانية :

اذا نص القرآن على أمر دنيوى فهو حق لا مرية فيه ، لأنه من الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

---

(٣١) ذكره الدهلوى فى حجة لله البالغة ٢٧٢/١ ولم يعزه .
(٣٢) رواه أحمد فى مسنده (٦٧/٦) .

فان كان الفعل النبوى فى الشئون الدنيوية استجابة لأرشادات القرآن التى تتعلق بذلك الأمر ، فيكون الفعل بيانا أو امتثالا للقرآن ، ويحمل على الشرعى . ولعل خير مثال على ذلك شربه صلى الله عليه وسلم العسل للتداوى [٣٣] ، فان ذلك تطبيق لقوله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) .

وشبيه بذلك ما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه فعله عن وحى من الله تعالى .

المسألة الثالثة :

اذا تردد الفعل بين أن يكون دنيويا أو دينيا حمل على الدينى ، لأنه الأكثر من أفعاله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

---

(٣٣) الخطيب البغدادى عن أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اشتكى اقتمح كفا من شونيز وشرب عليه ماء وعسلا (الفتح الكبير)

ثمن العدد فى الوطن العربى :

لبنان ٤٠٠ ق٠ل٠	اليمن ٣٠ ريال	قطر ٧ ريال
سوريا ٣٥٠ ق٠س٠	السعودية ٦ ريال	ليبيا ٢٠٠ مليم
العراق ٣٥٠ فلس	مصر ٢٥٠ مليما	تونس ٥٠٠ مليم
الأردن ٣٠٠ فلس	السودان ٣٥ قرشا	الجزائر ١٠ دينار
الكويت ٥٠٠ فلس	البحرين ٤٠٠ فلس	المغرب ٥ درهم

الامارات العربية ٧ دراهم

كافة الاشتراكات يتفق عليها راسا مع :

دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع

ص٠ب ٢٨٥٧ كويت

هاتف ٤٣١٩٨٢ ـ برقيا : دار بحوث

القرآن الكريم والحضارة

د. عون الشريف قاسم (*)

كان القرآن الكريم وما يزال معجزة حضارية نزلت فى أمة أمية لم يبعث الله فيها رسولا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، النبى الأمى ، الذى كان كقومه أميا لا يعرف ما الكتاب بدليل قوله تعالى فى سورة الشورى (٥٢) (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم) . وكان هذا النور الذى فتح الله به على رسوله الكريم هو السبيل الى فتح آفاق الحكمة والمعرفة والحضارة أمام هذه الأمة الأمية فانتقلت بفضل معجزة القرآن من التخلف الى التحضر لقوله تعالى فى سورة الجمعة (٢) (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) صدق الله العظيم . ومعجزة القرآن الكبرى فى هذا المقام أنه رغم نزوله فى أمة أمية بدوية لم يكن تعبيرا عن مرحلة البداوة ، بل كان فى جملته وتفصيله ، تعبيرا عميقا عن مرحلة متقدمة من مراحل الحضارة والتمدن . ويكفى أن

(*) وزير الشئون الدينية والأوقاف بالسودان .

نذكر فى هذا المقام : أنه خاطب النبى الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أول ما خاطبه بكلمة : (اقرأ) . فمعجزة طلب القراءة من النبى الذى لا يقرأ تقابلها معجزة وضع الرسالة المعبرة عن أرقى صور الحضارة فى الأمة الأمية الضاربة فى البداوة ، وكلا المعجزتين دالتان على قوله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

وحقيقة الأمر : أن رسالة الإسلام المودعة فى القرآن الكريم لم تكن تعبيرا عن حال العرب أو وضع جزيرتهم فحسب ، بل كانت تعبيرا عن وضع الانسانية جمعاء وهى تنتقل من مرحلة البداوة وبساطة الحياة القائمة على رابطة الدم فى حياة القبيلة الى مرحلة الحضارة وتعقد النظام الاجتماعى القائم على رابطة المصلحة المشتركة فى حياة المدينة . وقد كان هذا الانتقال من حياة البساطة والبداوة الى حياة التعقيد الاجتماعى سبب قيام كل الحضارات والمدنيات القديمة التى كانت تزدهر لفترة ثم تنهار لتحل محلها حضارة جديدة ، وقد كانت رسالات السماء كما يصورها القرآن الكريم موجهة فى جملتها الى هذه المجتمعات المتقدمة التى يبلغ التناقض فيها أشده بين القيم وواقع الحياة المعاش . والمتتبع لقصص الأنبياء والرسل الذين وردت سيرهم فى القرآن الكريم يجدها دائما مقرونة بحياة المدن التى يعبر عنها القرآن الكريم بكلمة القرى . والقرية فى اللغة العربية : المصر الجامع ، وتطلق على المدن ، وفى الحديث الشريف : (أمرت بقرية تأكل القرى) وهى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وأم القرى مكة . وفى القرآن الكريم فى سورة الزخرف (٣١) (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أى مكة والطائف ، وكانتا مدينتين . وهذه الفكرة التى تربط الرسالات بالمدن معروضة فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة كقوله تعالى فى سورة يوسف (١٠٩) : (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . وكقوله تعالى فى سورة الاعراف (٩٤) : (وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) . وكقوله تعالى فى سورة الزخرف (٢٣) : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال

مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) • ويذكر القرآن الكريم فى مواضع مختلفة ان القصص التى يقصها على النبى الكريم هى قصص القرى كقوله تعالى فى سورة الأعراف (١٠١) : (تلك القرى نقص عليك من أنبائها) ، وكقوله تعالى فى سورة هود (١٠٠) : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) وكثير من هذه القرى أو المدن استحق العذاب لظلمه كما جاء فى قوله تعالى فى سورة القصص (٥٨) : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) • وفى قوله تعالى فى سورة الحج (٤٥) : (وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة) • وقد اقترنت حياة القرى بالفساد والظلم بحيث قل أن تنجو قرية من العذاب ، وذلك مذكور فى قوله تعالى فى سورة الاسراء (٥٨) : (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عـذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا) • وقد ذكر القرآن الكريم أسماء بعض المدن المرتبطة ببعض الرسل والأنبياء • فحياة سيدنا موسى عليه السلام فى مصر كانت حياة مدينة ، وقد ذكر ذلك فى سورة يونس (٨٧) (وأوحينـا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة) • وفى سورة القصص تتحدث الآية الخامسة عشرة عن سيدنا موسى : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ••) ويذكر فى الآية (١٨) : (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ••) وفى الآية عشرين : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) •

وقد أرسل الله شعيبا الى مدينة مدين ، وأرسل صالحا الى ثمود الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم : (الذين جابوا الصخر بالواد) ، فاستحقوا لعصيانهم الاهلاك بالطاغية ، وأرسل هودا الى عاد ، وقد وصف الله تعالى مدينتهم (إرم) بقوله جل وعلا فى سورة الفجر : (إرم ذات العماد • التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية • وعاش سيدنا يوسف عليه السلام فى قصور فرعون بعد السجن وأرسل الى أبويه فى البادية ليعيشوا معه فى المدينة كما ورد فى سورة يوسف

(١٠٠) : (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لمــا يشاء انه هو العليم الحكيم) . وذكر القرآن الكريم أصحاب الحجر فى قوله تعالى : (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) ، ووصفهم فى آية أخرى بقوله تعالى : (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) . وفى قصة لوط عليه السلام أوضح القرآن الكريم انه كان يعيش فى مدينة ، فذكر فى الآية (٦٧) من سورة الحجر بشأنه : (وجاء أهل المدينة يستبشرون) ، وذكر فى سورة الأعراف (٨٤) بشأنه أيضا : (وما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون) . وقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام فى منطقة ما بين الرافدين وفى مصر ، وبناؤه الكعبة التى قامت حولها مدينة مكة مشــــهورة ، وحتى قصة أهل الكهف متصلة بالمدينة ، فقد ذكر القرآن الكريم على لسانهم بعد أن استيقظوا من سباتهم : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) الكهف (١٩) . وتحدث القرآن الكريم عن سيدنا يونس فى سورة الكهف (٩٨) فقال : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لمــا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) . صدق الله العظيم .

وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر مظــاهر التطور الســـياسى والاقتصادى فى هذه المجتمعات الحضرية ، فتحــدث عن المــلأ ، وهى الطبقة الحاكمة المحيطة بالملك أو صاحب السلطان ، كفرعون وملأه فى قصة موسى كما ورد فى سورة يونس (٨٨) : (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا) ، وتحدث عن ملأ بنى اسرائيل ، وملأ قوم نوح ، وملأ هود فى عاد ، وملأ صالح فى ثمود ، وملأ قوم شعيب بمدين ، وملأ سليمان ، وملأ بلقيس ، وتحدث عن المترفين والملوك وعصيانهم فذكر فى سورة النمل (٣٤) على لسان بلقيس : (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعــــلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك

يفعلون) • وقال فى سورة الاسراء (١٦) : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) • وقال فى سورة سبأ (٣٤) : (وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون) • وقال فى سورة الزخرف (٢٣) : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) • ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بدعا فى الرسل من هذه الناحية ، فقد بعثه الله فى مدينة هى مكة أم القرى ، وخاطبه تعالى بقوله فى سورة الشورى (٧) : (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) • وقال تعالى فى سورة الانعام (٩٢) : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها) • وجعل الله هجرته الى مدينة يثرب ، وقد سميت بالمدينة فى الاسلام ، وكانت من قبل تدعى يثرب ، وقد ذكر القرآن الكريم اسم المدينة أربع مرات ، ولم يرد اسم يثرب الا مرة واحدة فى سورة الأحزاب فى قوله تعالى(١٣) (واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) •

وفى حديث القرآن الكريم عن العرب تركيز واضح على الحياة الحضرية وحياة المدينة ، وقل ان نجد ذكرا للبداوة وحياة الرعى • بل ان القرآن الكريم حين يذكر البادية يذكرها كنقيض لحياة التحضر والمدينة ، وقد وردت كلمة البدو مرة واحدة فى القرآن كله ، وذلك فى سورة يوسف حين شكر يوسف ربه فقال : (اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) • وذكر القرآن الكريم لفظة الباد فى سورة الحج (٢٥) : كمقابل للعاكفين فى مكة فقال تعالى : (والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) • وتحدث فى هذا المقام عن الأعراب ، وهم البدو ، ووصفهم بالغلظة ، فقال جلت قدرته فى سورة التوبة (٩٧) : (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) • وقال (١٠١) : (وممن حولكم من الأعراب منافقون) وقال فى سورة الحجرات (١٤) : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) • وقد بين القرآن الكريم فى مواضع كثيرة أن الأعراب غير العرب ، وهم

البدو فى أطراف المدن ، ولذلك تحدث عن (أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) فى سورة التوبة ، وتحدث عن المنافقين فى المدينة ، وقال عنهم فى سورة الأحزاب (٢٠) : (وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) • وقد كانت لفظة الأعراب تعتبر ذما ، وهى مقابلة لكلمة العربى التى يستعملها أهل المدن فى معظم البلاد العربية لمن حولهم من البداة حتى فى الوقت الحاضر ، كما هو الحال عندنا فى السودان • فقد قال ابن منظور فى لسان العرب (ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، انما هم عرب استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن ••• فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم ، واقتنوا نعما ــ بفتح النون والعين ــ ، ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة ، قيل قد تعربوا ، أى صاروا أعرابا بعدما كانوا عربا • وفى الحديث الشريف : ثلاث من الكبائر منها التعرب بعد الهجرة ، وهو أن يعود البادية ، ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرا ، وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه (من البادية) ــ من غير عذر ــ يعدونه كالمرتد) أ هـ •

وهذا التركيز على حياة المدينة الذى تجلى فى كل القرآن يشير الى أن ما كان أمرا طارئا وعابرا فى ماضى البشرية من مظاهر الاستقرار والتحضر قد أصبح فى حاضرها مركز الثقل فى تطور الانسانية • فالحياة المدنية القائمة على الزراعة المتطورة والتجارة والصناعة وما يتصل بها من تنظيم اجتماعى ، وما ترتكز عليه من علم وثقافة ومهارة مما يستوجب سيادة العقل ، كل ذلك قد تأكد على مستوى العالم ، وفتح بذلك مرحلة جديدة فى مسيرة التطور البشرى هى مرحلة النمو الاجتماعى الثقافى المتكامل فى حياة الحضارة القائمة على الزراعة المتطورة والتجارة والصناعة فى المدينة • وفى هذا الطور تنهار علاقة رابطة الدم التى كانت تحكم النظام الاجتماعى المرتكز على اقتصاديات البداوة وتنهار معها سلطة الجماعة وما يتصل بها من أعراف كانت تنظم علاقات المجموعة لتحل محلها رابطة المصلحة المشتركة التى توفق بين المصالح المتناقضة في حياة المدينة ، التي لا يتجمع الناس فيها علي أساس

رابطة الدم شأن القبيلة ، وانما يتجمعون كأصحاب مصالح على اختلاف ألوانهم ، وتباين أصولهم ، وتناقض مصالحهم ، والتاجر الذى هو رمز المدينة لا يتعامل مع الناس كأقرباء وانما يتعامل معهم كزبائن . وكانت مكة في القرن السابع الميلادى رمزا للمدينة الجديدة فى كل زمان ومكان ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فقد كانت حياتها الاجتماعية وما يكتنفها من تناقض صورة مصغرة لما يجرى فى أى مدينة فى القرن العشرين وما يليه على اختلاف فى الدرجة لا فى النوع .

وهذه النقلة الحضارية الكبرى فى حياة البشر التى وضعت حدا فاصلا بين ماضى الانسانية وحاضرها ، ومهدت السبيل أمام انسان العصر الحديث ، تحتاج الى فلسفة جديدة تضع فى حسابها التعقيد الكبير الذى يحدثه هذا التطور فى حياة مجتمعات هذه الحضارة التى تتراكم فيها الثروات ، ويؤدى التطور الاقتصادى فيها الى زعزعة كيان المجتمع ، مما يحتاج الناس فيه الى أكثر من القانون للحفاظ على سلامة المجتمع ومنعه من الانهيار من جراء النمو غير المتوازن بين جانب الحياة المادى وجانبها الروحى والانسانى . وفى مثل هذا المجتمع تتدهور العلاقات الانسانية والاجتماعية ، ويحتاج الناس الى رادع قوى فعال يحل محل العرف وسلطة الجماعة التى كانت تحفظ على الناس تماسكهم الاجتماعى فى مرحلة البداوة وبساطة الحياة . ولا يمكن لدين يأتى فى هذه المرحلة المتأخرة من تطور الانسان ككائن اجتماعى أن يترك حياة المجتمع فى كل تفاصيلها للاجتهاد الشخصى وفوضى النظريات التى تنطلق فى معظم الأحوال من الدوافع الذاتية وتتحكم فيها الأهواء والنزعات كما هو الحال فى كثير من النظريات الاجتماعية المعاصرة ذات الاتجاه الواحد التى تحكم جانبا من جوانب الانسان وتغفل جوانبه الأخرى ، بل لابد للدين من أن ينظم علاقة الانسان بربه أولا ثم يوجه هذه العلاقة لتطوير العلاقات الانسانية داخل المجتمع ويضع لها الأسس والضوابط عن طريق الأحكام العامة ، ويترك للناس مجال الاجتهاد فى التفصيلات والأشكال التي تتغير بتغير الظروف وتقلب الأحوال .

وكانت الديانات السماوية قبل الاسلام رغم اشتمالها جميعا فى صورتها المصفاة على جوهر العقيدة الخالدة ، تعبر عن مرحلة البساطة الأولى من تطور البشر ، وتحمل سماتها على المستوى الاجتماعى . فكانت كل رسالة موجهة لمجموعة بعينها من الناس لتلائم وضعهم الحضارى . وتقلصت رسالات السماء فى نهاية المطاف من جراء جحود الناس وعصيانهم لتصبح رمزا للجمود والتعصب والتحريف على أيدى من أنزلت عليهم ، كما هو الحال فى رسالة سيدنا موسى التى استحالت عند اليهود الى ديانة قومية عنصرية تحل لليهود ما تحرمه على غيرهم وتحكم معيارين للتعامل ، لليهود فيما بينهم معيار ، ولليهود فى علاقاتهم بغيرهم معيار آخر ، وانتهى بهم الأمر الى أن جعلوا الله رب كل الناس الها قوميا خاصا بهم دون جميع الناس . وجاءت المسيحية لتصحيح هذه التحريفات حتى يتسع دين الله محبة للناس ورحمة ، ويخرج من الاطار القومى الضيق الذى حصره فيه اليهود ، وليصبح الله سبحانه وتعالى كما أراد جلت قدرته الها لكل الناس ، لا لليهود وحدهم . ولكن المسيحية لظروف تاريخية معلومة لم تتوسع فى تنظيم علاقات المجتمع ، وانما اكتفت بما جاءت به التوراة ، وما وضعه الرومان من تشريع ، تاركة ما لله لله وما لقيصر لقيصر . وبذلك كانت هذه النقلة الحضارية الكبرى التى حددت مسار البشرية ووضعتها فى طريق التطور المدنى القائم على الاقتصاد المتطور فى حياة المدينة فى حاجة الى دين جديد يعبر عن هذا الوضع الجديد . كانت البشرية فى حاجة الى تعبير جديد عن تطورها الروحى الجديد الذى يتسم بانهيار سلطة الجماعة وتضامنها فى حياة المدنية وطغيان فردية الفرد على مصلحة المجموعة ، مما يحتاج الامر معه الى صياغة جديدة للفرد والمجتمع تعيد اليهما جميعا التوازن والانسجام بما يحفظ للمجتمع تماسكه وتكافله ويضمن للفرد حريته وتطوره . وكان الجديد الذى أتى به القرآن الكريم تعبيرا عن هذا الوضع الجديد . انه أكمل رسالة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام بأن أدخل الدين فى حياة المجتمع ومزج بين قيم الدين وشعائره ومجرى الحياة اليومى بحيث أصبح

الدين هو الدنيا وأصبحت الدنيا هى الواجهة الأخرى للدين ، واتخذ من الفرد الانسانى وسيلة للتغيير الاجتماعى بحيث أصبح الفرد يحمل فى ضميره كل قيم المجتمع وعلاقاته العامة لأنه ألغى الفوارق المصطنعة بين سلوك خاص يفعل الانسان فيه ما يشاء ما دام بعيدا عن المجتمع وبين سلوك عام يتقيد فيه الانسان بنوع معين من التقاليد . ألغى الاسلام الازدواجية التى كانت قائمة فى المجتمعات القديمة وما تزال قائمة فى المجتمعات المعاصرة والنابعة من فكرة فصل الدين عن الدنيا بحيث يكون هناك معياران للسلوك واحد خاص وآخر عام ، فأصبح الفرد بحكم ما رسبه الدين فى نفسه عن طريق الشعائر والمعاملات صورة للمجتمع يحمل فى ضميره كل القيم الاجتماعية التى تحض على التكامل والتعاون والاحترام المتبادل وتدفع الانسان الى التفانى فى خدمة الآخرين والحفاظ على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم لا لأنه يخشى الناس أو يطمع فى مرضاتهم ، ولكن لأن له معيارا موضوعيا ثابتا يحكمه فى كل صغيرة وكبيرة خاصة وعامة ، هو معيار التقوى وخشية الله ، لأن الله الذى هو فوق كل خلقه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ومن خشى الله لم يهب أحداً ولم يخش فى الحق لومة لائم .

وهذا النموذج المتطور للفرد ـ المجتمع أو الدولة ـ الذى سعى به الاسلام لعلاج تطور الحياة الحضرية فى مرحلة حياة المدينة وأكمل به الدين على مدى الزمان هو الحل الحاسم لمشكلة الحضارة فى كل البيئات والأزمان الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك كان الاسلام خاتم الرسالات ، وكان نظامه الفكرى والاجتماعى والروحى الذى يركز على خلق الشخصية الانسانية المتوازنة التى لا افراط فيها ولا تفريط والتى توازن بين حاجات الجسد وحاجات الروح كما أمرها الله سبحانه وتعالى فى قوله الكريم فى سورة القصص ٧٧ (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين) ، كان هذا النظام الاسلامى فى تكامله انجازا واتماما لما جاء به الرسل من قبل ، وحين ذكر الله جلت قدرته فى محكم تنزيله كآخر ما نزل من القرآن

الكريم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) فان هذا كان تلخيصا رائعا لكل الجهد الروحى والحضارى الذى بذلته الانسانية تحدوها عناية الله وهدايته من لدن آدم عليه السلام لتحقيق خلافة الانسان لله على الأرض ، وقد حوى القرآن الكريم كل هذا الجهد الخلاق بين دفتيه ، وكان على خلاف كل معجزات الرسل : معجزة عقلية حضارية وضعت حدا فاصلا لعهود الأساطير وغلبة العواطف والأهواء والنزعات الضالة وأكدت سيادة العقل والعلم . ولذلك لا عجب ان كانت أول كلمة منه ثورة على الجهل : اقرأ ، وكانت أول آياته تحديدا للمنطق العلمى الذى يسير عليه فى تنظيم الحياة : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ❋ خلق الانسان من علق ❋ اقرأ وربك الأكرم ❋ الذى علم بالقلم ❋ علم الانسان ما لم يعلم) .

ولم يكن هذا التركيز على العلم الذى افتتح به القرآن الكريم الوحى المنزل هو نهاية المطاف لسعى الانسان الذى انتهت اليه الانسانية فى هذا الطور الأخير من تطور البشر بل نحس بتركيز القرآن عليه فى كل ماضى الانسان من لدن آدم عليه السلام الذى كرمه الله على كثير من خلقه بالعلم وكان اختصاصه بالعلم سببا فى عصيان ابليس وقد ذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة البقرة ٣٠ ــ ٣٤ (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) . والقرآن فى سبيل تركيز ملكة التفكر يوجه عقل الانسان الى مظاهر الكون الخارجية ليتخذ منها مادته فى إذكاء جذوة الفكر وتقوية ملكة التأمل

واكتشاف حقائق الوجود الدالة على حكمة الله فلذلك كثرت الآيات الكونية فى القرآن وكلها آيات لقوم يعقلون ، ولقوم يتفكرون ، ولقوم يفقهون ، ولقوم يعلمون ، ويكفى فى هذا المقام أن نذكر أن لفظة العلم ومشتقاتها تكررت أكثر من ثمانمائة مرة فى القرآن الكريم ، ولفظة العقل ومشتقاتها حوالى خمسين مرة والتفقه عشرين مرة والتفكر ثمانية عشرة مرة . ولذلك لا عجب ان كان العلم الذى شرف الله به الانسان على كل خلقه هو المعيار الحقيقى لمعرفة الله وادراك حكمته كما ذكر القرآن فى قوله تعالى فى سورة فاطر ٢٨ (انما يخشى الله من عباده العلماء) وكما كان مدخل القرآن دعوة للقراءة والتعلم فى أول آياته فانه قد اتخذ أسلوبا عقليا ثقافيا فى لفت أنظار العرب الى محتواه الفكرى الذى لا يقوى على ادراكه الا المثقفون والمتضلعون فى العلم ، ويبدو هذا فى أبلغ صورة فيما يسمى بفواتح السور ، وهى عبارة عن أحرف مبهمة تبدأ بها سبعة وعشرون من السور المكية وسورتان مدنيتان هما البقرة وآل عمران المسميتان بالزهراوين وهى صيغ قد تكون حرفا واحدا مثل (ص) و (ق) و (ن) ، وقد تكون حرفين مثل (طه) و (طس) و (يس) و (حم) ، وقد تكون ثلاثة أحرف مثل (الر) ، (الم) ، (طسم) ، وقد تكون أربعة أحرف مثل : (المص) ، (المر) ، ووردت مرة واحدة فى خمسة أحرف هى : (كهيعص) ، وهى ثلاث عشرة صيغة وردت فى افتتاح ٢٩ سورة وعدد الحروف المشتركة فيها أربعة عشر حرفا أى نصف الحروف الهجائية ، ولا أريد أن أخوض فى التفسيرات الكثيرة التى سعى بها العلماء لكشف أسرار هذه الأحرف ، وهى مما استأثر الله بعمله ، ولكنى أشير الى انها أدوات علمية ثقافية تحتاج ممن توجه اليه الى معرفة القراءة والكتابة وكأنه يشير الى هؤلاء العرب بأن مفتاح هذا القرآن هو العلم والثقافة والتزود بهما فأنت محتاج الى فك هذه الطلاسم الأولى لادراك قيمة الحروف ومعرفة القراءة قبل الدخول فى القرآن الذى يرمز اسمه نفسه للقراءة ، فان لفظة القرآن مشتقة على الأرجح من القراءة حملا على قوله تعالى فى سورة القيامة ١٨ (ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) ، وكثير من الآيات الأخرى تشير الى هذا المعنى كقوله تعالى

فى سورة الاسراء ١٠٦ (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) •
ويتصل بمعنى القراءة والكتابة • وقد أكثر القرآن من الحديث عن الكتابة والكتب بحيث تكررت حوالى ثلاثمائة وعشرين مرة فى القرآن ، وقد أقسم القرآن بحروف الهجاء وأقسم بالقلم وأقسم بما يسطرون وتحدث عن أدوات الكتابة من مداد وقرطاس وصحف وسجل وضرب بذلك المثل فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) •

وقد حوى القرآن من منهج العلم ومن محتوى الثقافة والفكر وما يتصل بهما من أساليب النظر العقلى مما اضطر معه العرب الى التبحر فى كل صنوف المعرفة لفهمه وادراك معانيه فدرسوا اللغة والأدب وتبحروا فى دراسة التاريخ والجغرافية ودرسوا كتب أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب النحل والمذاهب ، واستعانوا بها فى التفسير ودرسوا علوم الطبيعة لادراك معنى الآيات الكونية الواردة فى القرآن الكريم فتبحروا فى الفلك والكيمياء والرياضيات والهندسة والطب وما اليها ودرسوا الفلسفة والأخلاقيات للاقتراب مما ورد فى القرآن من اشارات للظاهرة الانسانية والظاهرة الاجتماعية وتفاعلهما مع مظاهر الكون المحيطة بهما وفى سنوات معدودة تغير مناخ جزيرة العرب الثقافى فأصبحت مهدا لحضارة بلغت فى مدى قرن من الزمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قمة من قمم الانجاز العقلى فى كل مجالات الحياة الانسانية •
والذى لا جدال فيه أن القرآن كله دعوة للعلم والثقافة واعمال الفكر وكيف لا والقرآن الكريم يقول : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ، وقد رفع الله من قدر العلماء فقال جلت قدرته (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ، ومن ثم كان الاسلام من الديانات النادرة التى كان طلب العلم فيها فرضا دينيا لا يكون المسلم مسلما الا بتنفيذه لأن معرفة الدين تحتاج الى توسع كبير فى طلب العلم ولهذا السبب كانت المجتمعات المسلمة حتى فى عصور الظلام والتخلف من أكثر شعوب الأرض حبا للعلم وطلبا له لأن من أراد أن يقرأ القرآن للتعبد فلابد له من تعلم القراءة والكتابة • وليس من قبيل

الصدف أن تسمى مجموعة الأحكام الشرعية والقانونية فى الاسلام بالفقه أى العلم وحسن الادراك ، ومما يكمل هذا المنحى العقلى فى تناول الشريعة اعتبار الرأى والقياس مصدرا من مصادر استنباطها الأربعة بعد الكتاب والسنة والاجماع واتخاذ الاجتهاد سبيلا الى توسيع دائرة التشريع واثراء محتواه • ولارتباط العلم الوثيق بفهم الاسلام وابراز مراميه وردت الأحاديث عن طلب العلم ولو فى الصين وعن تفضيل العالم على العابد ، وعن ترجيح مداد العلماء على دم الشهداء ، وعن وراثة العلماء للأنبياء ، وقد وصف القرآن كثيرا من الأمم السابقة التى تنكبت طريق الهداية بأنهم قوم لا يعلمون وتكررت عبارة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) مرات عديدة •

ولأهمية العلم كانت لفظة العلم ومشتقاتها من أكثر ألفاظ القرآن دورانا اذ تكررت أكثر من ثمانمائة مرة ، ولكن العلم فى القرآن مقرون بالايمان ويكفى فى هذا أن أول آية نزلت فى الأمر بالقراءة قرنت القراءة باسم الله الذى خلق ، فهى ليست قراءة من أجل القراءة أو من أجل التسلية أو من أجل الأهواء وانما هى قراءة موجهة بالايمان بالله ، وقد تكررت فكرة الايمان ومشتقاتها أكثر من ثمانمائة مرة أيضا (٨١٧) • وكما اقترن العلم بالايمان فى القرآن الكريم فان الايمان مقترن فيه بالعمل وقد تكررت فكرة العمل ومشتقاتها أكثر من ثلاثمائة وخمسين مرة • وقد تكرر هذا الاقتران فى عدد كبير من الآيات كقوله تعالى فى سورة الطلاق ١١ (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) وكقوله تعالى فى سورة النساء ٢٤ (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) ولقوة هذه الصلة بين الايمان والعمل وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان فقال ما معناه : (ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل وان قوما رحلوا من الدنيا وليس لهم عمل وقالوا نحسن الظن بالله ، كذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل) . ولذلك لا عجب أن اعتبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كثيرا من مظاهر السلوك

والمعاملات شعبا من شعب الايمان ، فقد ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الايمــان بضع وســبعون أو بضع وستون شعبة فأفضــلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطــة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمــان) رواه مسلم .
فالايمان فى الاسلام أسلوب حياة يمتزج فيه الدينى بالدنيوى ويختلط فيه المعنوى بالمادى اختلاط الروح بالجسد فينصهر الجانبان فى وحــدة عضوية لا ينفصل فيها أحدهما عن الآخر . وهذه الوسطية التى جاء بها الإسلام لإحداث التوازن فى نفس الإنسان ، وفى علاقات المجتمع وفى صلة الانسان بالكون ، ملحوظة فى كل نظم الاسلام وأفكاره . فقد رفض الاسلام مادية اليهود وتكالبهم على الدنيا ورفض فى نفس الوقت رهبانية النصارى وابتعادهم عن الدنيا وأمر الناس بالتوسط فقال جل من قائل فى سورة الأعراف ٢٩ (قل أمر ربى بالقسط) ثم وضع هذا القسط فى طلب الدنيا فقال ٣٢ ــ ٣٤ (يا بنى آدم خــذوا زينتــكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) صدق الله العظيم .

ولكى يؤكد القرآن مفاهيم الحضارة ونماذجها الفاعلة اســتعار كثيرا من ألفاظ الحضارة للتعبير عن مختلف الأفكار . فاستعمل كلمات التجــارة مثل كلمة الشراء التى تكــررت فى خمس وعشرين موضعا للدلالة على اكتساب الفضائل أو الرذائل كقوله تعالى فى سورة البقرة ١٦ (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وكقوله فى سورة آل عمران ٧٧ (ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة) ويستعمل كلمات البيع والثمن والبضاعة والكيل والميزان والقسطاس وكلها من ألفاظ المعاملات المادية للتعبير عن الأفكار والمعانى .

ويضرب الأمثال بنماذج متطورة من ابداع الانسان كالحدائق الغناء التى يبذل فيها أهلوها الجهد الكبير ولكنها تذهب هباء لجحود أهلها .

وحب الناس للدنيا وزينتها أمر قامت عليه الشواهد وهو فى فطرة الانسان وقد أكثر القرآن الكريم من الاشارة اليه كقوله تعالى فى سورة آل عمران ١٤ (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عنده حسن المآب) وما دام حب الدنيا فى فطرة الانسان فالحل لمشكلة الغنى ليست بالتخلى عن الدنيا وانما بتوجيه الأغنياء للانفاق منها على المحتاجين والفقراء ولذلك ركز القرآن على فكرة الانفاق التى تكررت فى أكثر من سبعين موضعا منه ، وقد اقترن فيه الانفاق بالايمان والعبادة فى كثير من الآيات كقوله تعالى فى سورة البقرة ٣ (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وجعل قمة التقوى «الانفاق» فى قوله تعالى فى سورة آل عمران ٩٢ (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ويكفى فى هذا المقام أن الزكاة ركن من أركان الإسلام إضافة إلى ما ورد فى القرآن من حث على التصدق مما يجعل من نظام الاسلام نظاما لا يقوم على فكرة المساواة التى تتحدث عنها كثير من المذاهب المعاصرة بقدر ما يقوم على فكرة الايثار والتضحية فى سبيل الآخرين لقوله تعالى فى سورة الحشر ٩ (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . وهذا الايثار وما يتصل به من بر واحسان وعمل صالح مفيد يدخل فى حيز الباقيات الصالحات التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى قوله الكريم فى سورة الكهف ٤٦ (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) . وميزان التعادل فى ذلك يحكمه القول المأثور (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

أخلص من كل ذلك الى أن القرآن الكريم لخص بين دفتيه نموذج المجتمع الحضرى الذى يمتزج فيه الدين بالدنيا لخلق الفرد المتوازن

جسما وعقلا وروحا والذى ترسبت فى ضميره وعقله قيم المجتمع بحيث أصبح الفرد مجتمعا فى فرد ودولة داخل الدولة . وهذه الصـــياغة الجماعية لشخصية الفرد المسلم هى التى حفظت للمجتمع المسلم تماسكه وقوته فى كل عصور الانحطاط والاضطراب . وكل ذلك يشير الى أن هذا النموذج البشرى الذى نجح الاسلام فى تشكيله هو الحل الحاسم لمشكلة المجتمع الحضرى القائم على الاقتصاد المتطور الذى يزعزع كيان المجتمع ويدمر العلاقات الاجتماعية والانســانية بحيث لا يســـتطيع القانون ولا قوى الامن ردع أطماع الطامعين وتطلعات ذوى الشهوات والرغبات ، ولا سبيل الى الوقوف أمام سيل هذه الرغبات الجامحة التى تغذيها حضارة الاستهلاك الا بأن ينبع الرادع من الداخل ، وأن يكون جزءا من كيان الفرد وضميره ، وهو ما يهدف اليه الاسلام من صياغة الفرد صياغة اجتماعية تتوجه فيها كل طاقاته الروحية والفكرية والجسدية لتحقيق خلافة الله على الأرض بخلق المجتمع القوى الذى يطور الحياة ويرقى بالانسان . وهو يتخذ من الفكر منهجا لتحقيق هذه الرسالة التى يمتزج فيها الايمان بالعمل ، ويهتدى فيها الانجاز بنور العلم ، لتحقيق الوسطية التى اختص الله بها أمة القرآن فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) . وتحقيق هذه الوسطية ليس حلا لمشكلة المسلمين وحدهم ، وانما هو حل لمشكلة الانسانية فى عصر الصناعة والاقتصاد المتطور على مدى الزمان . ولهذا السبب انتهت الرسالات وختمت النبوات وأصبح واجب المسلمين هداية البشرية لكلمات الله التى لا تبديل لها لانقــاذ مستقبل الانسانية التى تتخبط فى ظلمات الحس والأنانية من جراء غلبة النظريات المادية ذات الاتجاه الواحد التى تحسب أن تقدم الانسان فى اشباع البطن وتحقيق رغبات الحس دون اهتمام بحاجات العقل والروح وتطوير انسانية الانسان .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو : ما الذى بقى فى حيــاة المسلمين من الاسلام بحيث يكونوا شهداء على الناس كما أراد الله لهم

أن يكونوا ليستحقوا شهادة الرسول عليهم ؟ والأمر المؤكد أن المسلمين جميعهم صياغة حقيقية للاسلام كما تهيأ له أن يدخل فى حياتهم وبالتالى فان هذه الصياغة تتفاوت فى الدرجة والكيف خاصة وأن معظم العالم الاسلامى المعاصر قد برز الى الوجود وحضارة الاسلام فى حالة جذر وضمور ولكن نور الإسلام كامن فى النفوس والقلوب وأن حجبته من الاشعاع على حياة الناس رواسب القرون ومخلفات عهود الجهالة والجمود التى استغلها المستعمرون فى العصور الحديثة لتعطيل فعالية الاسلام فى حياة المسلمين وعقولهم • ومن الحقائق التى يجب أن يتنبه لها المسلمون : ان الإسلام دين حركة وثقافة وعمل ، وكلما تراخى المجتمع وفتر نشاطه تقلصت بالتالى فعالية الاسلام فى حياته • ولهذا السبب لم يجمد الاسلام طوال تاريخه على مستوى حضارى بعينه ، بل كان يهجم على كل ثقافة وفكر ويحوره ويهضمه فى بوتقته الفاعلة ليخرج نتاجا اسلاميا يزداد به ثراء المجتمع المسلم • فلم يكتف المسلمون الأوائل بمجرد قراءة القرآن والحديث ، ولم يظلوا عاكفين عليهما دون تفكر وتأويل ودون تلاقح مع تجدد الأحوال والظروف بل اعملوا فيهما الذهن وعبروا عن نمو حضارة الاسلام فى حياتهم عربيا فى البداية مما برز فى علوم اللغة والقرآن والحديث ثم كلاميا حين انتقلوا الى الأمصار واتصلوا بأصحاب الحضارات القديمة فى فارس والروم ثم فلسفيا حين ترجمت فلسفة اليونان الى العربية ثم علميا حين تعمق المسلمون فى التراث الحضارى الذى وصلهم عن أصحاب الحضارآت الى جوارهم ، وفى كل هذه الاطوار كان الاسلام يتجدد ويزداد غنى وثراء باتساع آهابه للتعبير عن كل جديد يطرأ على حياة المسلمين اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ودينيا • ولأن الدين فى الاسلام هو عمود الحياة الفقرى فقد كان ازدهار هذه الحياة زراعيا وتجاريا وسياسيا ينعكس على الدين حيوية وفعالية مما جعل من الفقه الاسلامى تعبيرا صادقا عن حركة الحياة فى كل ميادينها الاقتصادية والزراعية والتجارية والاجتماعية عامة . وحين تقلص نشاط المجتمع بانهيار الدولة المركزية واستفحال الاضطراب فى عصور الظلام وما تبع كل ذلك من تدهور الزراعة واضطراب التجارة

وتقلص النشاط الاقتصادى عامة وانهيار النظام الادارى والسياسى بحيث ارتد العالم الاسلامى الى ضرب من الاقتصاد البدائى تقلص بالتالى نشاط المجتمع الثقافى والفكرى الذى كان ينبثق من حركة المجتمع ويعبر عن حيويتها فاندثرت العلوم الطبيعية وقل اهتمام الناس بقضايا الزراعة والاقتصاد والتجارة وانعكس كل ذلك على الحركة الفقهية التى كانت تزداد غنى وثراء بالاستفادة من كل هذه العلوم والمعارف لتصبح أكثر قدرة على التعبير عن حركة الحياة ونمو المجتمع على الصعيد الفقهى والتشريعى. لقد كانت كل حركة المجتمع الاقتصادية والثقافية والعلمية رافدا حيويا يمد الحركة الدينية بالغذاء ويمنحها القدرة الذاتية على مسابقة الزمن للبحث عن كل القضايا التى تلم بالمجتمع وتحتاج الى الحل الحاسم على مستوى التشريع . ولهذا السبب كان كل علمائنا الأوائل موسوعيين فى ثقافتهم بحيث كانوا يلمون بكل معارف العصر ليتمكنوا من التعبير عن روح العصر وينتقل الاسلام بعقولهم ومداركهم الى مرحلة أعلى فى سلم الرقى والكمال . وحين وقفت حركة المجتمع ووقفت معها حركة العلم المعبرة عنها وقفت حركة الاجتهاد فى الفقه واقتصر النظر فيه على العبادات وما يتصل بالأحوال الشخصية وبعض المعاملات دون سائر النشاط الانسانى الآخر وظل الخلف يتلقى عن السلف ما ورثه عن آبائه فى تقليد وتسليم فى الوقت الذى جدت فيه قضايا كثيرة وتغيرت أحوال المسلمين مما يحتاج الأمر معه الى الحلول الفقهية التى تسلك تجربة المجتمع الحديث فى اطار نظام الاسلام الفقهى والتشريعى . وحين عجز العلماء عن ذلك دخلت فى حياة المسلمين ألوان وألوان من المعاملات والاقتباسات لا تدخل فى اطار الشريعة ، ولكن حركة الحياة التى لا تقف لا تترك للناس الخيار ، فان الحياة لا تقف لأن عقول الفقهاء والعلماء قد وقفت عن الاجتهاد . ويقينى أن ما يحدث فى العالم الاسلامى اليوم من حركة ونشاط بعد هذه القرون الطويلة من الجمود والتحجر التى انفصل فيها المجتمع المسلم عن حيوية تراثه ستنعكس على فكرنا الدينى بحيث تدب فيه الحياة كنتيجة للحركة الشاملة التى بدأت تنتظم حياتنا الاقتصادية

والثقافية والاجتماعية ، فيصبح هذا الفكر الدينى ـ كما كان فى سابق عهده ـ تعبيرا أصيلا وصادقا عن حركة الحياة فى شمولها ـ واتساعها • وعندها لا تصبح ثقافتنا الدينية قاصرة على العبادات وحدها كما هو الحال فى عصور الجمود والتخلف ـ وانما تصبح شاملة لكل قضايا العصر التى تواجهنا على كل المستويات العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية• فان تراثنا ليس مجرد ثقافة وانما هو الأساس الفلسفى والفكرى لسلوكنا العام والخاص والقرآن ليس نصا للتلاوة والتبرك فحسب بل هو دستور حياتنا والمرشد العملى لكل تصرفاتنا ومقدار حيوية المجتمع المسلم تعتمد على اتخاذ القرآن والسنة وكل تراث الاسلام منهجا للعمل والسلوك لا لمجرد التلاوة والتشدق بالألفاظ • وبذلك وحده يعيش الاسلام فى حياتنا وتنبض شخصيتنا القومية بالحياة والفعالية لأننا بدأنا نعيش حضارتنا بدل أن نجتر قوالبها ونصوصها فى تقليد سالب ونصل شخصيتنا بمنابع ابداعها ونربطها بجذور أصالتها الواردة فى القرآن والسنة والمعبر عنها فى كل انجاز حضارتنا الاسلامية • اننا جميعا الصورة الكامنة لحضارتنا وقد تعاودت عليها ظروف الجمود والتخلف والانهيار ومخططات الاستعمار ففقدت مع الزمن قدرتها الذاتية على الحركة والتطور •

والآن وقد تخلصنا فى معظم عالمنا الاسلامى من الاستعمار المباشر فى صورته العسكرية والسياسية الذى شل قدرتنا على الحركة ، فان واجبنا الدينى والقومى أن نتابع معركة التحرر الوطنى ونصل بها الى غايتها المنطقية بأن نرفد ثورتنا السياسية التى أخرجنا بها الاستعمار المباشر بثورة حضارية نعيد بها النظر فى كل مجالات حياتنا فننفى عن وجودنا كل مظاهر التخلف والجمود وموروثات الاستعمار ونظمه ، فنستعيد بذلك أنفسنا ونرسى دعائم تقدمنا على ركائز ثابتة فى أرضية حضارتنا بحيث تنطلق كل أوجه نشاط المجتمع من استراتيجية اسلامية كبرى تتخذ من القرآن الكريم وسنة رسوله العظيم وموروث حضارتنا مرتكزها الأساسى ، وبذلك يكون جهدنا الوطنى فى كل قطر من أقطار

الاسلام نابعا من ضمائرنا محققا لذواتنا مطورا لوجودنا فى انفتاح على روح العصر .

ونحن لا نبنى بذلك أوطاننا فحسب وانما نبعث فى نفس الوقت حضارتنا ونسهم بما نقدمه من انجاز فى دفع حركة التحرر الثقافى فى كل عالمنا الثالث الذى يدرك أن معركة المستقبل هى معركة حضارية فى الصميم ، ولا بقاء فيها الا للصامدين المؤمنين بأنفسهم المحققين لذواتهم . وفى قيامنا بهذا الواجب نحقق صلاح ديننا وصلاح دنيانا مهتدين بقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .



أزمة التعليم المعاصر
وحلولها الإسلامية (٣)

د • زغلول راغب النجار

استراتيجية التربية الاسلامية :

تعرف الاستراتيجية عادة بأنها صياغة الاختيارات فى مجموعة من الاجراءات لتحديد ما يجب عمله تبعا للحالات التى قد تعرض فى المستقبل • وليس المقصود بالاستراتيجية هو مجرد الانتقال بالمبادىء إلى الصعيد العملى حتى تصبح واقعا ملموسا ، بل تقديم العناصر التى يمكن الاعتماد عليها فى التخطيط لانجاز الأهداف • والسياسة التربوية هى الخطة التى تحدد فيها الاختيارات الرئيسية للدولة فى هذا المضمار ، وهى تصاغ كتابة من قبلها ، أو من قبل المفوضين منها للقيام بهذه المهمة ، مع مشاركة أفراد الأمة فى وضع تلك السياسة أو الحصول على موافقتهم الضمنية عليها ، فالسياسة التربوية لابد أن تعبر عن عقيدة الأمة ، وتقاليدها ، وقيمها ، وأهدافها الرئيسية من الحياة ، وتصورها للمستقبل ، وعلى ذلك فلابد فى تحديد السياسة التربوية من التأكد من أن أهدافها المحددة مستخلصة من الاتجاهات العامة لسياسة البلاد ، ومتمشية مع كل من أهدافها العامة ، والأهداف المحددة فى القطاعات الأخرى ، وفى ذلك كتب فور ومن معه (١٩٧٤ ص ٢٣٤) ما نصه : « ان السياسة

التربوية لا تنحصر فى رسم بعض المبادىء التوجيهية العامة ، بل لابد من أن تشتمل على مجموعة من الأهداف الخاصة المترابطة فيما بينها ترابطا قويا ، ومن بينها الأهداف ذات الطابع الروحى والفلسفى والثقافى ، مما يقدم فكرة واضحة عن مفهوم الانسان ، ويعمد بعد هذا الى تحديد الأهداف السياسية المتماشية مع الاختيارات القومية الكبرى . ويمكن بعد ذلك تحديد الأهداف الاجتماعية والاقتصادية التى تتضافر فيما بينها لتحقيق الغاية المنشودة ، طبقا لفلسفة المجتمع فى الحياة ، ولمتطلبات التنمية . وبعد هذا ، تحدد الخطوط العريضة للأهداف التربوية التى هى الشرط الأساسى لتحقيق الأهداف الأخرى المرسومة من أجل تنمية البلاد . وأخيرا ، تحدد الأهداف المحصورة فى النطاق التربوى ، ويجب أن تعبر تعبيرا صادقا عن الاتجاهات السائدة فى المؤسسات التربوية وفى التعليم على اختلاف مراحله .

« وبعد تحديد الأهداف ، لا يكفى ادراجها فى قائمة ، بل لابد من تصنيفها بحسب الأسبقية ، وتسجيلها ضمن مخطط متماسك ، وعندئذ فقط يمكن أن نطلق عليه تسمية **السياسة التربوية** » .

أما الاستراتيجية فهى الحلقة الوسطى بين السياسة من جهة ومنهج التخطيط من جهة أخرى ، ولكى تقوم الاستراتيجية التربوية بدورها كاملا : لابد أن تكون شاملة لجميع أشكال التربية ومختلف مستوياتها ، ومتكاملة مع الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وطويلة المدى بدرجة معقولة ، وعلى قدر من المرونة يسمح لها بمسايرة تطور الاختيارات السياسية ، كما يجب أن تكون مضبوطة ضبطا دقيقا (حتى يمكن للتخطيط أن يقوم على أسس سليمة) ، وديناميكية تأخذ بعين الاعتبار عمليات التطور المبدع والتجديد بصورة مستمرة .

أما التخطيط : فالهدف منه هو تيسير مهمة اتخاذ القرارات ، وهو لا ينحصر فى تحديد مجموعة الأهداف والسعى لتحقيقها فقط ، بل لابد له من انتهاج طرائق معينة مدروسة ، وتوفير الوسائل اللازمة للنجاح ، ومن الضرورى أن يكون التخطيط عملية متواصلة وذلك لأن الواقع الاجتماعى

فى تغير مستمر ، وكذلك وسائل التحليل والتقييم فى تحسن وتطور دائمين .

وليس المقصود بالتخطيط هنا هو التحكم فى العملية التربوية تحكما قميا يشل من فاعلياتها ، وانما رسم الاطار العام لضمان التوحيد ، مع ترك قدر كبير من الحرية للقائمين فعلا بالعملية التربوية ، وفى ذلك كتب فور ومن معه (١٩٧٤ ، ص ٢٣٦) ما ترجمته « على أن التخطيط سوف يزداد أهمية اذا ما توسع وخرج عن نطاق المدرسة ليشمل جميع ميادين التربية ، شريطة ألا يقع المسؤولون فى نظام الادارة التوجيهية المستبدة ، وأن لا يخلطوا بين التخطيط الشامل المفيد ، والتخطيط الكلى الاستبدادى المضر » .

من هذا العرض يتضح أنه لا يمكن للتربية الاسلامية الشاملة أن تقوم فى ظل حكم غير اسلامى ، وفى نفس الوقت لا يمكن لحكم اسلامى أن يقوم بغير تربية اسلامية شاملة ... ، وعلى ذلك فلابد من كسر هذا الطوق الذى فرض على الأمة الاسلامية ، وأيسر الطرق الى ذلك هو العمل على اقامة مؤسسات التربية الاسلامية الشاملة (من رياض الأطفال الى الجامعات) بجهود شعبية هدفها تربية الشباب المسلم الذى يخرج للحياة رافعا راية القرآن فى ذاته وفى أهله وفيمن حوله حتى يقيم شرع الله فى الأرض .

ومن هذا العرض أيضا يتضح أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر سياسة تربوية اسلامية (بمعنى قيام العملية التربوية بمختلف مستوياتها ، وتعدد نشاطاتها على التصور الاسلامى الصحيح للانسان والكون والحياة ، وبمعنى ألوهية الله) باستثناء بعض البادرات الخيرة التى تنشط بصورة محدودة فى أجزاء متناثرة فى العالم الاسلامى ، وتبعا لذلك لا توجد استراتيجية محددة ولا تخطيط مقنن ، ولكن انطلاقا من فلسفة التربية الاسلامية وأهدافها ، وقياسا على نظمها الرائدة التى حققت من النجاح ما لم تستطع نظم التربية المعاصرة ــ بكل امكانياتها المادية ،

وبكل ما تجمع لها من التجارب التربوية ــ تحقيقه يمكن وضع خطوط عريضة لما يجب أن تكون عليه استراتيجية التربية الاســلامية فى وقتنا الحاضر ــ بكل تحدياته ــ فى النقاط التالية :

(أ) فى نطاق النظم التربوية :

١ ـــ الاهتمام بالتربية قبل المدرسة : فالتربية الاسلامية لا تقصر اهتماماتها فى اطار المعهد التعليمى فحسب ، بل توجهها الى الانســان من لحظة ميلاده الى نهاية عمره ، بل تهتم به قبل مجيئه الى هذه الدنيا ، لأنها تشترط العلاقة المشروعة بين الأبوين ليخرج الطفل الى هذه الحياة على صورة يرضاها الله والناس ، كما تشترط حسن اختيــار كل من الوالدين لأن للموروثات أثر فى تكوين الجنين الذى يحمل نصف صفاته عن الأب والنصف الآخر عن الأم ، وهذه أحاديث رســول الله (عليه الصلاة والسلام) تنبهنا الى ذلك « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ، « ... فاختر ذات الدين ، تربت يداك » ، « اغتربوا لا تضووا » .

والتربية الاسلامية تنص على حسن اختيار اسم الوليد « أحسنوا أسماءكم فانكم ستدعون بها يوم القيامة » ، وتؤكد على ضرورة حضانة الأم لطفلها حتى يكبر ، وتعتنى عناية بالغة باليتيم وتؤكد على حقوقه تأكيدا مشددا ، وتهتم بتأسيس البيت المسلم على أسس اسلامية ، فى تخطيطه وبنائه ، وفى أصوله وتقاليده ، وفى عقيدته وعباداته وأخلاقه ومعاملاته ، وفى نظامه وترتيبه ، وفى حقوق كل فرد فيــه . فهنا يتربى الطفل ــ منذ بدء ادراكه ــ بالمحاكاة والتقليد ، ويتطبع بطباع أهلــه وعاداتهم ، ويتأدب بالتلقين والموعظة والزجر والعقــاب (اذ لزم) ، ويقتدى بالقدوة الحسنة ، ومن هنا لزم وجود الولى الذى يحسن التربية ويتقن التوجيه . فهذا رسولنا الكريم يؤكد على مسؤلية الآباء تجاه الأبناء بقوله : « يولد المولــود على الفطرة فأبواه يهــودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، وقوله « مروا أولادكم بالصـــلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

كما توصى التربية الاسلامية بحقوق البنوة وحسن القيام بواجباتها فلا يجوز للآباء أن يرفضوا أطفالهم أو يبالغوا فى حمايتهم • أو أن يفضلوا أحـدا على أحد ، أو أن يغالوا فى تشـددهم ، أو يسرفوا فى تساهلهم ، وذلك حتى تتربى نفوسهم تربية سـوية هادئة ، لا تعكرها المشاكل والعقد من الصغر فتفسد فطرتها الربانية السليمة •

٢ ـــ الاهتمام بمعاهد التربيـة والعمل على نشرها : فالتربيـة الاسلامية تولى المدرسـة والمعهد التعليمى عناية بالغـة ، عناية بالمعلم والإمكانات والبناء والإدارة ، فهى تشترط حسن اختيار المعلم • دينـا وخلقا وعلما . لأنه هو المثل الأعلى للطالب . خاصة فى المراحل الأولى من التعليم • فإذا صلح المعلم صلحت العملية التربوية ، واذا فسد فسدت كلها ، وتشترط الإدارة الحكيمة المدركة ، وتوفير الإمكانات اللازمة ، والمبنى المناسب ، بغير اسراف ولا تقتير ، ولا بذخ ولا تقصير ، لأن كل قرش يفيض عن الحاجة الضرورية يمكن الاستفادة به فى انشـاء معهد آخر ، وتعليم أناس آخرين • وفى هذا الصـدد تجدر الإشـارة إلى أن التعليم فى الإسـلام بدأ فى المسجد وارتبط به • وهكذا يجب أن يكون أى نظام تربوى تؤسسه • بمعنى : أن يكون المسجد هو المركز الذى يدور عليه بناء أية مدرسة أو معهد تربوى • هو مكان الصـلاة ، وقاعة الاجتماعات والمحاضرات والندوات ، والمكتبة مرتبطة به ، والمبنى كله يدور حواليه ، ونحن فى ذلك محتـاجون إلى مهندسين مسلمين يبرعون فى اعادة تخطيـط مراكزنا التربوية بما يوفى كل احتياجـات العصر ، على هذا النهج الاسلامى •

كذلك تجدر الاشارة الى أن المبالغة فى البنيان وفخامته سواء فى المسجد أو المعهد التربوى هو أمر مخالف لتعاليم الاسلام وأصـوله ، فيجب أن يكون المبنى بسيطا ، نظيفا ، وافيا بالاحتياجات الضرورية فى غير إسراف أو مبالغة . وذلك لأن التربية حق من حقوق كل مولود ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم بالغ عاقل ، وعليه : فمن الواجب أن تتـاح فرصهما لكل فرد فى المجتمع ، لا فى فترة محددة من عمره فحسب ، بل

طوال حياته ، وبالتالى فلابد من زيادة عدد المؤسسات التربوية ، وتسهيل عمليـة الانخراط فيها ، وتمكين كل فرد من اختيـار ما يلائمه منها . وهنا لا يجوز الاسراف ولا المبالغة فى تشييد مراكز التعليم والانفاق عليها ، حتى تفتح أبوابها لنفر من الناس دون الآخرين ، بل لابـد من تخفيض تكاليف انشائها وادارتها حتى يمكن مضاعفتها أضعافا كثيرة تستوعب كل فرد فى الأمة ، خاصة فى المراحل التربوية الأولى . ويتم توفير التعليم الابتدائى لجميع الأطفال فى السن المناسـب ما أمكن ، وبطرائق أخرى متعددة اذا لزم الأمر ، وكذلك تقليص أسباب الهـدر التعليمى ، والعمل على اعادة تأهيل الفاشلين دراسيا .

اذا كانت التربية الاسلامية تهتم بتوفير المؤسسة التعليمية الصالحة، معلما ، ومبنى ، وادارة ، وامكانيات ، فهى تهتم أيضا بطهارة المجتمع المدرسى وتأسيسه على الأخلاق القرآنية الكريمة ، وتهتم بالمجتمع الكبير خارج حدود المعهد التربوى ، وبقيمه التى تنطبع فى ذهن الصـغير من البداية حتى تكاد تصبح جزءا من نفسه ، ومن هنا فنظام التربية الإسلامية يقوم على الربط الوثيق بين البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع ، ربطا لا ينفصل ولا يتجزأ .

٣ ــ بناء النظم التربوية على أساس من الشمول والاستمرارية :

الشمول الذى يهتم بتنشئة الانسان الصالح وذلك بانماء جسده على أسس علميـة صحيحة حتى ينشأ قويا سليما معافا . وهداية روحـه هداية ربانية نورانية حتى ترتبط بالله ، وتأديب نفسـه على الالتزام بالأخلاق القرآنية السامية ، حتى يصبح ذلك جزءا لا يتجزأ من كيانها ، وتنمية عقله . وذلك بتدريبه على حسن التفكير ودقة الاستنتاج ، وعمق النقد الهادف البناء ، حتى يتسم بالحكمة فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل ، والتعرف على مختلف ملكاته ومهاراته وحسن توجيهها حتى تتم تنميتها الى أقصى طاقاتها مما يعينه على القيام برسالته فى هذه الحياة وعمرانها ، والتنسيق بين كافة عناصر العمليـة التربوية (المعرفـة ، الفهم ، الاتجاهات العقلية ، الحوافز ، الاستعدادات العلمية) وزيادة

الاهتمام بالفرد وتربيته حسب قدراته • والاستمرارية هنا تعنى إتاحة الفرصة لكل فرد فى التزود من المعرفة باستمرار ، وبغير قيود مسبقة ، وتكامل المؤسسات التربوية مع مؤسسات المجتمع الأخرى ، وتحديد التزامات قطاعات العمل والانتاج تجاه تدريب العمال والفنيين وتثقيفهم باستمرار ، وتوثيق الروابط بين المجتمع والتعليم ، وبين الصناعات والجامعات ومراكز البحوث ، فكلها من العناصر الأساسية فى نظام التربية الشاملة المستمرة •

٤ ــ عدم الفصل بين المعارف وبالتالى عدم تقسيم التربية الى دينية ودنيوية ، فهذا الفصل انتقلت عدواه الى بلاد المسلمين من النظم التربوية العلمانية ، فالاسلام ــ على الرغم من اهتمامه الزائد بالتخصص فى الدراسات الاسلامية ــ الا أنه لا يعرف كهنوتا كما هو موجود فى « الديانات » الأخرى ، ولا يهمل أى جانب من جوانب المعرفة الانسانية • وهو يهتم بتنمية المهارات اليدوية والمهنية • فهؤلاء هم أنبياء الله ورسله كلهم من أصحاب الحرف ، وكل منهم كان يأكل من عمل يده •

والفصل بين المعارف إلى دينية ودنيوية : قد عزل العلوم الدينية عن ركب الحياة ، ومشاكلها ، وتطورها ، مما زهد الناس فيها ، ودعاهم الى هجرها ، كما عزل العلوم الدنيوية عن الحكمة ، وجعلها تدور فى الأطر المادية للأشياء فقط ، مما أدى الى رفض المتدينين لها ، وفقدان حماسهم للاهتمام بها • والحل لا يمكن أن يكون فى رفض هذه المعارف فهى تراث الانسانية كلها ، ووسيلتها إلى عمران الحياة على الأرض ، ولا يمكن أن يكون فى فرضها (وهى لا تزال تنطلق من منطلق الحادى منكر) على المسلمين دون إعادة صياغتها حسب التصور الإسلامى الصحيح (كما حدث مع الأزهر الشريف) ، لأن ذلك يعنى « علمنة » مراكز التربية الإسلامية بدلا من « أسلمة » الجامعات والمراكز العلمية المختلفة والتى أسست ــ وتؤسس اليوم فى العالم الاسلامى ــ على أسس علمانية صرفة ، فاذا كان أعداء الإسلام قد خططوا للقضاء على مراكز التربية العريقة التى عملت على حفظ الاسلام ولغة القرآن قرونا طويلة ، فليعمل المسلمون لأسلمة المعارف الإنسانية كلها ، وبالتالى توحيد

الفكر التربوى فى جميع مؤسساته فى العالم الاسلامى ان لم يكن فى العالم بأسره .

٥ ــ جعل المحور الحقيقى للعملية التربوية هو الانسان بوصفه خليفة الله فى الأرض ، والكائن الحى العاقل المختار المكلف ، صاحب الملكات والمواهب ، والذى سخر الله تعالى له الكون كله .

والانســان هنا مقصود بطرفيه فى العمليــة التربوية : المربى والمتربى .

فكما يشترط فى المربى كمال الدين واستقامة الخلق وغزارة العلم وحسن التــدريب على القيام برســالتهم التى هى فى صميمها استمرار لرسالة الأنبياء . فيجب الاهتمــام بهم اهتماما يعكس الشعور بخطورة رسالتهم وذلك بحســن اعدادهم أولا . ثم بمنحهم ما يستحقون من التقدير المعنوى (الاحترام والثقة) ، والمادى (المرتبات ، والتسهيلات فى الحياة) حتى يتفرغوا لمهماتهم التربوية تفرغا كاملا ، ويشعروا بثقة المجتمعات فيهم . لأن الثقــة تولد الرغبة فى الكمال ، فيرقوا بأنفسهم الى مستوى المســئولية الملقاة على عاتقهم ، كذلك لا بد من اعطائهم الحرية الكاملة لتربية أبنائهم الطلاب بالطريقة التى يجيدون ، والتى قد تتباين بتباين الأساتذة ، بل وبتباين الطلاب أنفسهم قدرة ومهارة وميلا ، وأخذ عامل التباين الفردى هذا فى الحســبان لأن كل فرد كيان قائم بذاته ، فالطلاب يختلفون فى طبائعهم ، وقدراتهم ، وامكانياتهم للتعليم ، ورغباتهم فيه ، وتهيؤهم النفسى له ، ومستوى ادراكهم بصفة عامة ، وحتى فى الطالب الواحد : يتباين ذلك كله بتباين مراحل النمو ، وزيادة النضج واكتساب الخبرة . ومن هنا كانت ضرورة المواءمة بين مرحلة النمو والقدرة على التعلم ، وهنا يجدر التنبيه الى أهمية التعليم باللغة الأم ، مع عدم إهمال تعليم لغات أخرى ــ خاصة اللغة العربية ــ إذا لم تكن هى اللغة الأم ، والعمــل على اكساب الطالب المعرفة على هيئــة خبرة شخصية تكتسب بالممارســة ، وليست تلقينا لفظيا مجــردا . فالتلقين

اللفظى لا يجوز الا فى حفظ كتاب الله . وذلك أملا فى الاستفادة من الذاكرة الصافية التى يتمتع بها الانسان فى مراحل حياته الأولى .

والمساواة فى التربيــة ضرورة من ضرورات قيامها برسالتها على الوجه الأمثل ، وهى صورة من صور العدل الاجتماعى ، وبالتالى : فلابد من نزع الأطر الادارية المتزمتة الجامدة عن المؤسسات التربوية ، والغاء الشروط التعسفية الجائرة فى قبولها للطلاب ، وجعل المقياس فى ذلك هو القابليات والمؤهلات الشخصــية ، دون ترجيح مطلق للتقدير فى امتحان ما ، وذلك لأن الامتحان بصورته الراهنة لا يمكن أن يكون مقياســا عادلا لقدرات الطلاب ، أو تعبيرا صــادقا عن استعداداتهم الشخصية ، وأن الخبرة المكتسبة عن طريق التحصيل الشخصى أو فى نطاق الممارسة الفعلية فى مهنة ما ، قد ترجح كثيرا ما يلقن فى المدرسة أو المعهد التعليمى . فالنظام التربوى الناجح يركز نشاطه كله على المتربى ، ويمنحه مزيدا من الحرية كلما ازداد نضجا لكى يقرر بنفسه ما يريد أن يتعلمــه ، وكيف وأين يمكن أن يتعلمه ؟ حسب ميوله الشخصــية ، وقابلياته ودوافعه ، بل لابد أن يتم ذلك فى اطار من المشاركة الفعــالة حيث يسهم المتعلمون أنفسهم فى النهوض ببعض المسئوليات التربوية .

هذه العناية بالانسان مربيا ومتربيا تحتم الاهتمام بمعاهد التربية ومراكز اعداد المعلمين اهتماما يعكس خطورة الرسالة التى يضطلع بها المربون ، وهنا تبدو الحاجة ملحة الى انشاء معاهد اسلامية للتربية تعد المربين الاعداد الصالح اللائق بدورهم فى الحياة ، ثم متابعة ذلك بالدورات التدريبية والندوات الفكرية اللازمة لهم ، ولتطوير مهنتهم باستمرار .

٦ ــ العمل على تبسيط العملية التربوية وتيسير اجراءاتها : فمن المميزات التى تجمعت للتربية الاسلامية عبر القرون الاثنى عشر الأولى من تاريخها المجيد هى البساطة ، والتيسير ، والخلو من التعقيدات التى تعانى منها نظم التعليم المعاصر . فلم تكن التربية الإســلامية تشترط أكثر من أستاذ مؤمن ، عالم عامل ، ذى خلق ، وطلاب لديهم الامكانية والرغبة فى التعلم ، تحكمهم علاقة من التفاهم ، والمحبة ، والثقة ، وخشية

الله ، والشغوز بقدسية العملية التربوية ، وحسابها فى عداد الأعمال التعبدية . وكان ذلك أكبر عون على تذليل أية صعاب واجهتها . وعلى تحقيق الغاية المرجوة منها بأقل جهد وأيسر تكلفة . !!

فلم تكن هناك أسوار بين العلم والمجتمع ، بل كانت فرص التزود منه تتاح لكل راغب فيه ، دون أية شروط كالسن ، أو الحصول على مؤهلات سابقة ، أو الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، ... الخ ، ما دام الأستاذ قد وافق على قبوله لتحصيل العلم على يديه . ولكى نعيد للعملية التربوية روحها الاسلامية فلابد من زيادة مؤسساتها ، وتسهيل إجراءات الانخراط فيها ، وتمكين الفرد من اختيار ما يلائمه منها حسب قدراته وامكاناته وميوله ، بحرية كاملة ، وبوسائل متعددة ، فى مرونة ويسر تمكن كل راغب فى المعرفة أن ينهل منها ، وأن يترك ذلك كلية للأستاذ والطالب ، دون تدخل أية سلطة أخرى . اللهم الا اذا كانت أعمالا ادارية تنظيمية بارشاد الأستاذ وتوجيهه .

٧ ـــ ازالة الحواجز التقليدية بين مراحل التربية المختلفة : فلم تكن هناك أية حواجز فى النظام الاسلامى بين مراحل التربية المختلفة فالمتعلم كان له أن يتنقل رأسيا من مستوى الى غيره ، وأفقيا من تخصص الى آخر حسب رغبته واستعداداته ، وبتوجيه من أستاذه ، وهذه المرونة كانت تزيد من مجالات الاختيار أمام الطلاب ، ولا تضطر أيا منهم الى الانخراط فى تخصص لا يتناسب وميوله ، أو الدراسة على يد أستاذ لا يستسيغ طريقته . أو الفشل والاضطرار الى ترك التعليم كلية .

وعلى ذلك فلابد من ازالة الحواجز المصطنعة التى تفصل بين مختلف أنواع التعليم ومراحله ومستوياته ، وبين التعليم النظامى وغير النظامى ، وتيسير عملية التربية المرحلية حتى يستفيد منها كل من تضطره ظروفه الى العمل مبكرا ولا تزال لديه رغبة فى مواصلة تعليمه .

كذلك لابد من توسيع مفهوم التعليم العام بحيث يتيح للطفل فرص التربية النظرية والتقانية والتطبيقية واليدوية ، والتوفيق بين تكوينه

العقلى والتطبيقى واليدوى ، حتى يمكن أكتشـاف مواهبه وتوجيهها التوجيـه الصحيح ، ولابد من تنويع التعليم الخـاص وتعدد مجالاته ومؤسساته ليتمكن من تلبية احتياجات الأفراد والمجتمعات .

وهذا الانفتاح على مختلف مجالات المعرفة فى التربية الاسلامية يسره فى الماضى أن العلم كان يقصد لذاته ، لا للوظيفة ، ولا للمهنـة ، ولا للكسب المادى المجرد عن القيم والأخلاق ، ولا للافتخار والتباهى به ، ولا للتسابق على مراكز الصدارة فى المجتمع . فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول :

« لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، أو لتبـاروا به السفهاء ، ولا لتحدثوا به فى المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » . وعلى ذلك كان العلم يقصد رغبة فى المعرفة والحكمة ، وحبا فى الاستزادة منهما ، وأملا فى القدرة على تعليمها للناس ، وعلى استعمالهما فى عمران الحياة على الأرض ، وإقامة شريعـة الله فيها . ولم يكن يحول دون ذلك أن يكون الإنسان صاحب مهنة . فأنبياء الله كانوا من أصحـاب المهن . وكان كل منهم يأكل من عمل يده ، وهذا عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه يقول « انى لأرى الرجل فيعجبنى ، فأسأل هل له مهنة ؟ فاذا قيل لا ، سقط من عينى » .

هذا ، وقد كان العديد من المسلمين البالغين يفضلون الترحال فى طلب العلم ، والبعد عن الوطن والأهل ، تأكيدا لتفرغهم فى تحصيله ، وتقليلا لما يمكن أن يصرفهم عنه .

٨ ــ العمل على جعل التعليم عملية ذاتية حرة غير مقيدة بمناهج محددة : ولقد كان ذلك من أبرز سمات التربية الاسلامية التى رفضت تكبيل الانسان (مربيا ومتربيا) بأية قيود جامدة من مثل ما يعرف اليوم باسم المناهج المحـددة . فلقد كانت تكتفى بتحديد فلسـفتها المسـتمدة من عقيدتها وأهدافها العامة التى تتلخص فى تربية الإنسان الصالح ، وأطر ذلك من سلوك وأخلاق ومعاملات وحقوق وواجبـات ، وتترك العملية التربوية بعد ذلك علاقة مقدسـة بين المربى والمتربى ،

تحكمها خشية الله وتقواه ، والايمان العميق بأنها رسالة تؤدى ، وصورة من صور القربى الى الله • ويكفى أنها نبعت من المسجد وارتبطت دوما به •

وعلى ذلك فقد ظلت العملية التربوية طوال القرون الاثنى عشر الأولى (أو يزيد) من تاريخها المشرق ، تربية فردية حرة بكل ما فى الكلمة من معنى ، لم تتبع أية مناهج محددة ، خاصة فى المراحل المتقدمة منها ، فبينما نجد مناهج التربية اليوم تتباين فى أسسها بين تركيز على الطفل فقط وما يتنازعه من عوامل داخلية (عوامل الوراثة) ، أو خارجية (مؤثرات البيئة) ، أو كليهما ، أو تركيز على المعلومات وحدها (بين شاملة واختيارية) ، أو على المجتمع بذاته (بين تحليل واقعى ورؤية مثالية) ، أو على العمل وحده (كالقيمة الاجتماعية الوحيدة فى الحياة) ، وكلها مفاهيم جزئية ، لا تتناسب مع تكامل الطبيعة الانسانية وشمولها ، فضلا عن تباين الأفراد ، واختلاف قدراتهم وملكاتهم : مربين ومتربين • فاننا نجد لكل مرب فى النظام الاسلامى منهجيته الخاصة ، وطرائقه فى تنفيذها ، وأسلوبه ووسائله التى تتباين بتباين الطالب وقدراته وملكاته وميوله ، وكامل ظروفه ، بل بتباين مراحل نموه • مما يؤكد انسانية كل فرد ويعمل على صيانتها •

ومن الغريب أن التربويين فى العالمين الرأسمالى الليبرالى ، والاشتراكى الشيوعى ، قد بدأوا بعد دراسات مستفيضة يفيقون إلى أهمية هذه المبادىء الاسلامية فى التربية : الانسانية والحرية فى نظام وطاعة ، لا يتسمان بالتعقيد ولا بالخنوع ، وفى بساطة منضبطة لا تكبلها أثقال القيود المفروضة والمعممة على كل الأفراد رغما عن تباينهم ، وفى عدل اجتماعى يتيح لكل فرد — مهما كانت ظروفه ، وعلى مدى حياته — فرص التعليم والترقى فيه إذا كانت له رغبة صادقة فى ذلك (أنظر فور ومن معه ، ١٩٧٤م) فالصرخة اليوم تتعالى فى العالم كله طلبا لنظام تربوى متكامل ، يتيح فرص التربية المستديمة على كافة المستويات ابتداء برياض الأطفال (التى يجب التوسع فيها

لتستوعب كل وليد) الى المرحلة الثانوية (التى يجب أن يعاد تنظيمها لتتسم بقدر من المرونة يتلاءم مع كل الطاقات ، وبالتنوع الذى يمكن أن يجعل منها تأهيلا للجامعة وللمهنة وللحياة) ، والى التعليم العالى (الذى يجب أن تتعدد آفاقه ومؤسساته من الجامعات الى المعاهد التقنية والفنية العامة والمتخصصة ، الى مراكز البحوث ومعاهده ... الخ ، وأن يفتح أبوابه على مصاريعها لكل راغب فيه وقادر عليه) الى التعليم غير النظامى الذى يهتم باعداد البرامج الخاصة للشباب وتوجيههم عبر وسائل النشاط الاجتماعى والاعلامى المختلفة ويوفر البرامج التربوية التعليمية والتدريبية فى شتى مجالات المعرفة لكل من الموظفين والمهنيين أثناء قيامهم بالعمل ، أو حتى تفريغهم - بعض أو كل الوقت - للدراسة بالتناوب ، (مع احتفاظهم بوظائفهم وبمرتباتهم كاملة) . وبذلك يمكن تحقيق التربية الشاملة المستمرة لكل فرد فى المجتمع ، وامتصاص القوى البشرية العاطلة عن العمل ، وتعليم أفرادها مهارات أو مهن جديدة يطلبها المجتمع . مما يساعدهم على ايجاد فرص عمل مناسبة ، وربما كانت هذه المبررات من الحوافز على انشاء الجامعة المفتوحة التى تستخدم وسائل الاعلام الحديثة فى التربية (خاصة التليفزيون ، وبرامجه المطبوعة) والتى تقبل كل من يثبت الرغبة والقدرة على مواصلة السير فى الدراسة دون تقيد بالسن أو الحصول على شهادات سابقة ، وتمنحه كل الدرجات الجامعية التى يمكن أن يتقدم لها . وليست الجامعة المفتوحة الا صورة عصرية لحلقات العلم التى كانت تعقد فى المساجد منذ السنة الأولى للهجرة (فى المسجد النبوى منذ السنة الأولى من الهجرة ، وبالحرم المكى منذ عام الفتح ٨هـ ، وبمسجدى الكوفة والبصرة منذ ١٤هـ وبالمسجد الأموى بدمشق منذ ٤١هـ ، وبجامع الزيتونة فى تونس ٧٩هـ ، وبجامع المنصور فى بغداد منذ ١٥٧هـ ، وبجامع القرويين فى المغرب منذ ٢٤٥هـ . وبالجامع الأزهر بالقاهرة منذ ٣٦١هـ) . ويؤمها من يشاء من الناس دون أية شروط الا الالتزام بآداب الحلقة واذن أستاذها وشيخها ، وما أشبه الجلسة أمام التليفزيون لتلقى العلم عنه بالجلسة

أمام الشيخ للتلقى عنه ، مع فارق الوجود الفعلى للمربى ، وتأثيره الروحى والنفسى على طلابه ومريديه ، وما أكبره من فارق .

وانطلاقا من ذلك كله فقد قمت فى ندوة عقدت بجامعة الكويت فى ٣/٥/١٩٧٥م « لتطـوير تدريس العلوم بالمرحلـة الجامعية الأولى » بالتحذير من خطر « المناهج المحددة » المبنية على العديد من المقررات المتنوعة المسترجعة ، وغير المنسجمة ، والتى يقوم الطالب بحفظها من أجل الامتحان فقط ، الذى أصبح بالنسبة له شيئا يأتى فى المقام الأول قبل التعلم ، مما جعل دور التعليم الجامعى يتحول من التكوين العقلى للطلاب وتدريبهم على التفكير السليم ، الى مجرد ملء ذاكرتهم بأكداس المعلومات التى قد لا يفهمونها ، بل يستظهرونها للامتحان ، الذى أصبح الوسيلة الرئيسية لتقويمهم ، وبذلك انحطت عملية التقويم ذاتها الى مجرد قياس قدرة الطلاب على أداء الامتحانات ، وقدرة ذاكرتهم على الحفظ .

وللتغلب على ذلك قمت بتقديم اقتراح بالعودة بالعملية التربوية الى أساسها الاسلامى الانسانى البسيط ، وذلك بتقسيم الطلاب المتقدمين لأى قسم علمى (مثل قسم الجيولوجيا على سبيل المثال) الى مجموعات صغيرة بعدد أعضاء هيئة التدريس الموجودين بالقسم ، وحسب اختيـار كل طالب ورغبته ، وفى كل من هذه المجموعات يعمل الطالب من أربعة الى سبعة أسابيع على الأقل تحت اشراف الأستاذ الذى اختاره ، وبالطريقة التى يراها الأستاذ مناسبة له ، مستخدما فى ذلك كل البدائل المتاحـة (المحاضرات ، الندوات ، القراءات الموجهة ، الدراسات المختارة ، العمل فى المختبرات ، أو فى الحقل ، أو فى الصناعة ... الخ) ، وفى خلال ذلك تتم عملية تقويم الطالب بصورة مستمرة ، وكجزء من العملية التربوية ذاتها — وعلى أسـاس من ذلك التقويم المستمر — قد يسمح للطالب فى الاستمرار مع نفس الأستاذ الى دورة أو دورات أخرى ، أو التحول الى أستاذ آخر .

وبهذه الطـريقة يعمل الطالب لمدة تتراوح بين التسعين والمـائة وعشرين أسبوعا فى المتوسط تحت اشراف أسـتاذ واحد أو عدد من

الأساتذة ، وفى تخصص واحد أو أكثر من تخصص حسب اختيـاره ، علما بأن شرط المدة هذا غير جازم ، ومتروك كلية لتقدير الأستاذ ، وعلى الطالب بعد ذلك تقديم رسالة مطبوعة فى احدى مجالات التخصص الذى اختاره ، وأن يجلس لاختبار شفهى شامل قبل منحه الدرجة الجامعية .

هذا النظام يتيح للطالب التخصص العميق اذا أراده ، والدراسة العامة على تباين درجات اتساعها حسب ميوله ، كما يمكنه من اكتشاف مواهبه ومهاراته ويعينه على تنميتها وتطويرها ، وعلى توجيهها الى تقنية معينة بذاتها ، أو الى اتقان منهجية خاصة ، وهذا فى حقيقته هو الهدف الرئيسى من التربية الجامعية . والنظام المقترح يعطى الحـرية لكل من الأستاذ والطالب ، ويعين على تقدير الفروق الفردية بين الناس وأخذها فى الحسبان ، وعلى التعمق فى الدراسة أو تعميمها حسب استعداد كل فرد وميوله وقدراته ، كما يشجع على المبادرة ، والابداع ، ويسـاعد على اكتشاف المواهب الدفينة ، ويغنى عن نظام الامتحانات بصـورته الراهنة المضيعة للوقت والمحطمة للأعصاب ، وغير المنصفة ، كما يشجع على تقدم البحث العلمى ، ويصون الأخلاقيات الأساسية للتربية ، ويحافظ على طبيعتها الانسانية النبيلة ، ويعمل على تحقيق رسالتها السـامية ، ويعيد الى الذهن صورة التقاليد الاسلامية الجميلة التى قامت منذ أمد بعيد ، وأثبتت فاعليتها على مدى من الزمن طـويل ، ثم أقصيت عن معاهدنا التربوية رغما عنا ، أو ضحينا بها فى محاولات لاهثة لتبنى نظم مستوردة غريبة عنا .

وهذا النظام ليس بدعة مستحدثة ، إنما هو مستقى من نظام الأزهر الشريف ، والذى كان الى عهد قريب يتبع نظما اسلامية كاملة ، فلقد كان الطالب فيه هو الذى يختار بنفسه الأستاذ الذى يتلقى العلم على يديه ، وكان له أن يتنقل من أستاذ الى آخر حسب رغبته ، وأن يتقدم للامتحان بمحض اختياره ، ومتى رأى نفسه مؤهلا لذلك ، ولم يكن الامتحان هو الوسيلة الوحيدة لتقييم الطالب ، بل كان رأى أستاذه (الناتج عن معرفة حقه به ، واحتكاك وثيق معه) هو الفيصل فى ذلك ، وكانت الإجـازة

التى يمنحها تحمل اسم الأستاذ أو الأساتذة الذين تلقى عليهم العلم ، ومما لا شك فيه أن نظاما هذا شأنه هو أمثل النظم التربوية وأكثرها انسانية ، بدليل أن تجارب العالم التربوية قد وصلت بعد بحوث عديدة طويلة الى التوصية به والعودة اليه ، وان لم يسموه بتسميته الحقيقية ، ولم يصفوه بأنه النظام الاسلامى فى التربية (أنظر فور ومن معه ، ١٩٧٤ ص ٣٠٥ — ص ٣٠٦) . أضف الى ذلك أن طالب العلم آنذاك كان يطلبه حثيثا لذاته ، ويقطع المسافات الشاسعة من أجله ، ولا يبالى بالاغتراب والحرمان من متع الحياة فى سبيله ، ولم يكن يلهه عنه أى شاغل من شواغل الدنيا ، وكان يعتبره نوعا من عبادة الله والجهاد فى سبيله ، وهذا لا يمكن أن يكون فى غير الاطار الاسلامى .

وليس معنى ذلك أننا نريد العودة بالعملية التربوية الى ما كانت عليه فى الماضى تماما — فذلك مخالف لطبيعة العصر ، وسنن الأيام ، ولكننا نريد التأكيد على عدد من المعانى والقيم التى لازمت العملية التربوية فى ماضينا المجيد ، وأثبتت نجاحها وتفوقها ، ونحن فى دعوتنا هذه لا يفوتنا التأكيد على الاستفادة بالتجارب الانسانية فى ميدان التربية خلال القرن الماضى بصفة خاصة ، فالحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أولى الناس بها ، والمعرفة تراث البشرية كلها ، ساهمت كل الأمم والشعوب فى اثرائها وتنميتها على مدار السنين ، وتتابع الحضارات . ونحن نعلم أن العملية التربوية أصبحت خاضعة فى كثير من جوانبها للمنهج التجريبى ، ولا نجد سببا واحدا يمكن أن يحول دون الاستفادة بكل ما تجمع لدى الإنسان من نتائج فى هذا المجال ، ما دام لا يتعارض مع الإسلام ونصوصه وفلسفة التربية الإسلامية وأهدافها ، فسواء اشترط فى معلم المرحلة الابتدائية أن يكون مدرس فصل أو مدرس مادة (بمعنى أن يعد اعدادا عاما يجعله قادرا على تدريس كل المواد المناسبة لمرحلة الطفولة المبكرة ، بحيث يختص كل فصل بمدرس واحد يقوم بتدريسه جميع المواد ، أم يعد اعدادا متخصصا فى مادة أساسية أو فى مجموعة من المواد المتجانسة التى يقوم بتدريسها لعدد من الفصول) ، أو نظم التدريس فى تلك المرحلة بمزج هذين الاتجاهين

(حيث يعد المعلم للصفوف الأولى إعدادا عامـا ، وللصفوف المتأخرة اعدادا متخصصـا) أو بتجميع المدرسين فى فرق متعـاونة تعمل على التخطيط للعمليـة التربوية وتنفيـذها سـواء أكانوا متساويين فى المسئوليات ، أو متدرجين فيها ، أو متناوبين عليها • كل هذه تفاصيل مرهونة بنتائج تجريبها • فاذا كانت ناجحة ، فنحن أولى الناس بها • ولكننا نحذر من خطورة تعريض الصغار للعديد من التجارب التربوية لأن الضرر الذى يمكن أن ينجم عن ذلك قد يكون أكبر من امكانية تلافيه •

٩ ـــ العمل على الفصل بين الجنسين فى مراحل التربية المختلفة :

فان حضارة الاسلام فى انسانيتها ونبلها وسموها قد قامت على الفصل بين الجنسين اكراما للمرأة ، واعترافا بحقوقهـا التى تقتضيها طبيعتها ، وصونا لها • وان كان الاختلاط قد فرض علينا وعلى نظمنا التربوية المعاصرة من قبل الاستعمار وأعوانه من أبناء أمتنا الدائرين فى فلكه ، المفتونين بحضارته ، فان من واجب التربية الاسلامية التنبيه الى خطر ذلك والعمل على درئه باقامة مؤسسات تربوية لكل من الجنسين منفصلة تمام الانفصال ، والدعوة الى ذلك ما استطاعت اليه سبيلا ، وفى ذلك كتب الأسـتاذ الدكتور محمد محمد حسـين (١٩٦٧) فى كتابه « حصوننا مهددة من داخلها ، ص ٢٥٨ » ما نصه : « ••• فاذاً هذا الاختلاط يصبح حقيقة واقعة بطريق ملتو خفى لم يكد يتنبه اليه أحد ، بعد أن طالت المدرسة الابتدائية الى ست سنوات يتجاور فيها الذكور والاناث • ومن المعروف أن الاناث فى بلدنا يدخلن سن المراهقة فى وقت مبكر لا يتجاوز السنة الحادية عشرة فى كثير من الأحيان ، بل لقد أصبحنا أمام بعض المدارس المختلطة فى مرحلة التعليم الاعدادى ، بعد أن تكشفت تجربة الاختلاط فى جامعاتنا من مآسى لا يستطيع تجاهلها الا مكابر أو مدلس ، وأصبح هذا النظام ضربا من ضروب الالزام لا يستطيع والد أن يفر منه أو يتفاداه ، لأن عليه أن يختار بين أن يبعث بابنه وبابنته الى هذا الوسط وبين أن يحرمهم من التعليم ويحجبهم فى ظلمات الجهل ، بل

انه لا يستطيع اختيار الطريق الثانى ـ على ظلمه وظلامه ـ لأن قوانين الدولـــة تجبره على أن يعلم أولاده حتى نهاية هذه المرحلـــة الأولى على الأقل » .

١٠ ـــ العمل على اقامة مؤسسات تربوية اســـلامية شاملة : من المراحل الابتدائية حتى الجامعـــة بجهود شعبية ، حيث أن الأمـــل فى استجابة الحكومات لذلك النداء الخير ضعيف ، والتعقيدات المحيطـة بها قد لا تمكنها من الخروج مما تورطت فيه . وأول ما يجب الاهتمام به من بين تلك المؤسسات التربوية هو معاهد المعلمين والمعلمـات . فهذه اذا ما أقيمت على أسس اسلامية صحيحة خرجت المعلم المســلم والمعلمة المسلمة ، وبهما يمكن إحداث الكثير من التغيير ، وإحياء موات هذه الأمة التى أريد لها أن تقبر وهى حية بأيدى أعدائها ، وأيدى نفر من أبنائها جهلوا عقيدتها وتراثها وضلوا طريقهم فى تلك الحياة .

١١ ـــ العمـــل على وقف جميع المدارس التبشـــيرية والنشاط التبشيرى فى العالم الاسلامى

وذلك لأن كثيرا من المصائب التى جرت فى العـــالم الاســـلامى سببها المدارس التبشيرية ، فبينما أتباع محمد صـــلى الله عليه وســـلم يؤمنون ببعثة السيد المسيح عليه السلام ، فان ما يســـمون أنفســـهم بالمسيحيين لا يعتـــرفون ببعثة ســـــيدنا محمد ، بل قد انحرفوا عن تعاليم السيد المسيح نفسه ، وبينما المسلمون يدعون الناس كلهم الى الله ، فان مهمة المسيحيين فى العالم الاسلامى هى صرف الناس عن طريق الله لأنهم لا يطمعون فى كسبهم الى داخل أديرتهم وكنائسهم ، ويكفى فى ذلك الاشارة الى ما يحدث فى أندونيسيا والفلبين ، والباكستان ، وأفغانستان ، وايران ، والعراق ، وسوريا ، والأردن ، ولبنان ، ودول الخليج وفى اليمن ، ومصر والسودان ، والصومال ، والحبشة ... الخ .

وتكفى أيضا الاشارة الى أن بالأردن أكثر من مائة وأربعين مدرسة تبشيرية الغالبية العظمى من طلابها (أكثر من ٨٥٪) من المسلمين .

وواجب المسلمين الغيورين على دينهم ، والحريصين على تنشئة أبنائهم على أسسه وفى هداه ، ألا يكتفوا فقط باقامة البديل ــ وهو نظام تربوى اسلامى شامل ــ بل لا بد من وقف جميع المدارس التبشيرية والنشاط التبشيرى فى العالم الاسلامى .

١٢ ــ العمل على أن يكون التعليم بمختلف مراحله فى الدول العربية بلغة القرآن الكريم .

ودعم ذلك بحركة ترجمة واسعة لأمهات الكتب فى مختلف مجالات المعرفة ، على أن يصاحب الترجمة تعليق هامشى مبسط من المترجم على كل فكر يرى فيه انحرافا عن النهج الاسلامى الصحيح فى النظر الى الانسان والكون والحياة والى معنى ألوهية الله ، أما فى الدول الاسلامية غير العربية فلابد من الاهتمام البالغ بدراسة اللغة العربية فى مختلف مراحل التربية .

١٣ ــ الاستفادة من مختلف التجارب البشرية فى مجال التربية ، ومن أحدث وسائل التقنية ــ خاصة فى مجالات الاستنساخ والتبليغ ــ وأنسب وسائل الايضاح (خاصة الأفلام والشرائح) ، دون مبالغة أو اسراف .

١٤ ــ العمل على الاهتمام بالتدريب العسكرى فى تربية الذكور ، وبالتمريض والتدبير المنزلى فى تربية الاناث من بداية تمكنهم من ذلك .

(ب) فى نطاق المجتمع :

لم تكن التربية الاسلامية فى يوم من الأيام وقفا على النخبة المتميزة فى المجتمع بالجاه والسلطان والمال ، ولم تكن جماعية قسرية ، تلغى الوجود الفردى أو تهمله ... ، فالاسلام نزل للناس كافة ، وطالب الجميع بالايمان والعلم والعمل والالتزام بالأخلاق ، وهذا لا يمكن أن

يأتى بدون تربية ، ومن هنا كانت التربية حقا مشروعا لكل مولـود ، وفريضة على كل مسلم بالغ عاقل ، ومسئولية فى عنق كل متعلم أن يعمل بما علم ، وأن يؤدى زكاة علمه لكل محتاج اليه ، ومن هنا أيضا وجب القضاء على الأميـة فى المجتمع الاسلامى ، بل فى المجتمع الانسـانى الكبير .

والأمية صنفان : أولهما جهـل بالقراءة والكتابة ، وهـذه بلغت نسبتها فى سنة ١٩٧٠م بين البالغين (أكثر من ١٥ سنة) فى العالم ٣٤ر٢٪ ، وفى دول العالم الاسلامى حوالى ٧٥٪ (فور ومن معه ، ١٩٧٤) .

وثانيهما جهل برسالة الانسان فى هذه الحياة ، وبمصيره بعدها ، وهذه أخطر من أمية القـراءة والكتابة . أخطـر قدرا لأن الذى يقع فيها يفقد الجزء الأعظم من انسانيته ، وأخطر نسبة لأن الغالبية العظمى من الناس اليوم واقعون فى براثنها . ومن واجب التربية الاسلامية محاربة كلتى الأميتين بأسلوب علمى متكامل يخطط له وتتضافر جهود المسلمين فى تنفيذه على المسـتويين الرسمى والشعبى ، الجمـاعى والفردى ، وباستراتيجية مبدئية مقترحة على النحو التالى :

١ ـ تكوين هيئات متخصصة تقوم بهذه المهمة بأسلوب عصرى منهجى سليم ، ودعمها بالقوى البشرية الصالحة اللازمة لذلك ، وبكل احتياجاتها المـادية والمعنوية ، وبالوسـائل التى تمكنهـا من تحقيق غاياتها .

٢ ـ دعوة الأميين للتعلم ، وايجاد الحوافز الفردية والجماعيـة اللازمة لذلك ، خاصة وأن الأمية منافية للاسلام ، ولكرامة الانسان ، ولا يجوز لمسلم أن يبقى أميا لأن ذلك يحول بينه وبين نعم كثيرة أولها تلاوة كتاب الله الكريم وسنة رسوله المطهرة ، وآخرها الاطـلاع على تراث الانسانية الهائل فى مختلف جوانب المعرفة مما يمكنه من القيـام بدوره الحقيقى كخليفة لله فى الأرض ، وبمسئولياته تجاه نفسه ومن يعول ، وتجاه مجتمعه وأمته ، بل وتجاه الانسانية كلها ، كذلك من الواجب

دعوة الانسانية كلها إلى الاسلام بوصفه آخر الرسالات السماوية وأكملها وأتمها ، خاصة وأن الناس اليوم على اختلاف ألوانهم يتطلعون الي هذا النور . والدعوة للاسلام يجب أن تكون بأسلوب عصرى وحجة منطقية واضحة فالغالبية العظمى من الناس فى غير ديار الاسلام لم تقرأ عن الاسلام ، وربما لم تسمع به على الاطلاق ، أو سمعت كلاما محرفا ، ومن واجب المسلمين نقل صورة واضحة عن هذا الدين القيم الى هؤلاء الناس اعذارا الى الله ، وتأكيدا على معنى الأخوة الانسانية ، وأملا فى أن تتوقف تلك الحروب الظاهرة والمستترة ، والتى تتبناها حكومات تلك الدول ضد الاسلام .

٣ ــ دعوة المتعلمين على مختلف مستوياتهم الى التطوع لمحو الأمية بنوعيها ، وليبدأ كل منهم بأقرب الناس اليه ، أهلا له ، أو خدما فى بيته ، أو عمالا يعملون تحت اشرافه ، ويمكن الاستفادة فى ذلك بأئمة المساجد ووعاظها ، وبموظفى الدولة فى أوقات فراغهم ، وبالمحالين الى التقاعد ممن تعينهم ظروفهم الصحية على ذلك ، وبالطلاب خلال العطلات المدرسية ، وبوسائل الاعلام المتطورة مثل التليفزيون ، وبمبانى المدارس والمعاهد التعليمية المختلفة فى غير أوقات الدراسة ، ويمكن أيضا الاستفادة بالأعداد الهائلة من المسلمين الذين يتواجدون فى بلاد غير اسلامية ويشمل الأعداد الكبيرة من غير المسلمين المتواجدين فى ديار الاسلام فى هذا البرنامج ، والتأكيد على أنها مهمة من أنبل المهمات التي يمكن أن يقوم بها المسلم ، ومن أجمل ما يمكن أن يتقرب به المرء الى الله . !

٤ ــ العمل على إحياء رسالة المسجد من جديد ليعود كما كان حتى الماضى القريب : مكانا للعبادة ، ومدرسة لتعليم الناس القراءة والكتابة وتحفيظهم كتاب الله ، وجامعة شعبية مفتوحة تعقد فيها حلقات العلم الذى يحضرها الناس بدون أية شروط ، وتدار فيها المحاضرات والمناقشات العلمية على مختلف المستويات ، ومجلسا للشورى ، ومنتدى اسلاميا ، ودارا للقضاء ، ومركزا تنطلق منه الجيوش ، ودارا لضيافة الوفود ، ومركزا اعلاميا للاسلام ، وملجأ لمن لا ملجأ له ، والمسجد بهذه

الصورة يربط أفراد المجتمع الواحد برباط وثيق ، ويؤكد على معنى الأخوة بين الناس ، وعلى ضرورة التعاون والتكامل بينهم • ولو أن كل مسجد فى الأرض اليوم قام بمسئولياته تلك لانقشعت غيوم الأميـة عن العالم الاسلامى بل عن العالم كله فى زمن قصير جدا •

وفى هذا الصدد تجدر الاشارة الى ضرورة اعادة النظر فى تخطيط بناء مثل هذا المسجد الجامع تخطيطا هندسيا يمكنه من القيـام برسالته الشاملة ، فيحتوى على قاعة للصلاة ومركز لتحفيظ القرآن ، ومكتبة عامرة ، وقاعـة للمحاضرات العلمية والفـكرية والاحتفالات الدينيـة والاجتماعية ، وكذلك يحتوى على مركز للاسعاف ومستوصف وصيدلية ، وكل ما يمكن أن يعين على تحقيق رسالة المسجد الكلية •

وتجدر الاشـارة كذلك الى ضرورة التأسى بسـيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اتبعه فى بناء مسجده من البسـاطة والبعد عن البذخ والترف والاسراف ، وهذه الأمور التى تلاحظ فى كثير من المساجد التى أنشئت وتنشأ فى العالم الاسلامى اليوم من المبالغات التى يرفضها الاسلام • فلو أن الملايين التى تنفق على زخرفة المساجد والمبالغـة فى فخامة مبانيها توجه الى استكمال رسالة المسجد على النحو الذى أسلفناه ما بقيت أمية فى العالم الاسلامى • فنظام « الكتاتيب » الذي لعب دورا رئيسيا فى القضاء على الأمية ونشر العلم فى مختلف ربوع العالم الاسلامى قد بدأ أساسا من المسجد ثم انتقل الى غرفة مجـاورة له توقيرا لمكان العبادة وحتى لا يكون فى عملية التعليم والتعلم ازعاجا للمصلين ، وتطور الأمر بعد ذلك فى مراحل متعددة حتى أن مسجد سليمـان القانونى فى تركيا كان يضم الى ساحته عشر مؤسسات منها كليات أربع ، ومدارس ، ومستشفى ، ووحدات سكنية لطلاب العلم ، وكان المسجد يتحول فى فترات ما بين الصلاة الى قاعة حقيقية للدرس والمحاضرات ، وكذلك كان مسجد محمد الفاتح الذى ضم على جانبيه كليات ، ومضافة ، ومستشفى ، ومركزا لتوزيع الطعام ، وبالمثل كانت مدينة البعوث الاسلامية الى جانب الجامع الأزهر •

٥ ـ الدعوة الى تخصيص جزء من زكاة الأموال للانفاق على مراكز التربية الاسلامية (من مدارس ومعاهد وجامعات) فهذا هو أحد فقهاء المسلمين المرموقين فى زماننا (القرضاوى ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ص ٦٦٨) يكتب فى تفصيل المصرف السادس من مصارف الزكاة ، والمعبر عنه بالنص القرآنى « وفى سبيل الله » ما يدعم ذلك ويؤيده ونقطتف من ذلك قوله : « ... لهذا نرى أن توجيه هذا المصرف الى الجهاد الثقافى والتربوى والاعلامى أولى فى عصرنا بشرط أن يكون جهادا اسلاميا خالصا ، واسلاميا صحيحا ، فلا يكون مشوبا بلوثات القومية والوطنية ، ولا يكون اسلاما مطعما بعناصر غربية أو شرقية ، يقصد بها خدمة مذهب أو نظام أو بلد أو طبقة أو شخص . فلابد إذن أن يكون الإسلام هو الأساس والمصدر ، وهو الغاية والوجهة ، وهو القائد والموجه ، حتى تستحق تلك المؤسسات شرف الانتساب الى الله ، ويعد العمل فيها ولها جهادا فى سبيل الله » .

٦ ـ الدعوة الى اعادة نظام الوقف الاسلامى بصفة عامة ، والوقف على التربية الاسلامية ومعاهدها بصفة خاصة ، ومطالبة الحكومات التى حلت هذا النظام واستولت على أمواله بالتعويض عنها ، ومطالبة كل قادر بدعمه ، ثم التخطيط لحسن ادارة هذه الأموال ، واستخدامها لتحقيق الأغراض التى توقف من أجلها .

٧ ـ العمل على اقامة المجتمع الاسلامى بكل سماته ، لأنه مجتمع بطبيعته يحارب الأمية بنوعيها ، ويعمل على نشر العلم ، وعلى الترقى بالانسانية فى مدارج الكمال البشرى ، فان مجتمعا يحكمه القرآن الكريم لا يمكن أن تبقى فيه أمية ، فضلا عن جهالة . فمن واجبات المسلم قراءة القرآن وتفهم آياته ، والتعرف على تشريعاته وأحكامه ، وهذا لا يمكن أن يتأتى الا بقدر من المعرفة يمكنه من ذلك ، وعليه لم يكن مستغربا (كما سبق أن أشرنا) أن تنتشر مراكز التعليم الابتدائى (الكتاتيب) والعالى (المدارس ودور العلم والجامعات) فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى على هيئة نظام تعليمى حر يعتمد على تكافل أفراد

المجتمع الواحد ، أو على التطوع أو على الأوقاف ، أو على العون المادى من ذوى الثراء ، ولم يكن من المستغرب أيضا أن يقوم العديد من ميسورى المسلمين باقتطاع أجزاء من ممتلكاتهم ووقفها على التعليم أو على الدعوة الاسلامية •

وفى اقامة المجتمع الاسلامى تحقيق للنموذج الذى يحتاج الناس الى رؤيته واقعا حيا بينهم ، يمكن أن يقتدوا به ، ويقتفوا أثره •

اساليب التربية الاسلامية :

اذا كانت فلسفة التربية الأسلامية تتميز بالشمول والتكامل والتوحيد والتسامى ، فان أساليبها تتميز كذلك بالتعدد والتنوع فى شمول معجز ، وتكامل دقيق ، وتوازن محكم ، وايجابية سوية ، ومثالية واقعية •

وقد يتخيل البعض أن فى الدعوة الى العودة بالتربية الى منهجها الاسلامى يستلزم انغلاقا عن أساليب التربية الأخرى ، أو عودة الى الأساليب البدائية فى التربية ، واهمال منجزات الانسان فى هذا المجال الحيوى عبر القرون الطويلة الماضية • وهذا وهم خاطىء : لأن الإسلام يعتبر الحكمة ضالة المؤمن ، ويؤكد على أنه أنى وجدها فهو أولى الناس بها ، ويرى أن المعرفة الصحيحة المؤكدة هى تراث الانسانية كلها ، وصورة من صور الحق التى تجب صيانته والمحافظة عليه ، فكل تقدم يتحقق فى أساليب التربية ووسائلها : نحن أولى الناس بالمسارعة إليه والأخذ به بعد تحقيقه ودراسته ، والتأكد من موافقته لفلسفة التربية الاسلامية وأهدافها •

وهذا اللقاء العرضى فى الأسلوب بين التربية الاسلامية وغيرها من نظم التربية ، هو لقاء فى جزئية من الحق ، وفى بعض جوانبه ، ولكن تبقى التربية الاسلامية تربية ربانية متميزة ، وفى ذلك كتب قطب (١٩٧٤ ، ص ١٣) ما نصه : « ••• أن البشرية لم تعرف فى تاريخها كله نظاما بهذه السعة وهذا الشمول وهذه الاحاطة ، بحيث لا يند عنه شىء فى حياة

الانسان ، ولا لحظة من حياته لا تقع في محيط منهاجه الشامل الدقيق ، وتظل له مزية أخرى فوق ذلك : هى أن هذه السعة وهذه الاحاطة لا تخرجان به عن وحدة الهدف ووحدة الطريق ، فهو ليس طرائق قددا كل منها يؤدى الى غاية منفصلة ويجذب النفس فى اتجاه ، فتتمزق بين الشد والجذب ، وانما هو طريق واحد وغاية واحدة تجمع كل شتات النفس وتوحدها ، فتستقيم على النهج ، وتتجمع على الغاية ، فتلتقى النفس من داخلها فى سلام بعضها مع بعض ، وفى سلام من خارجها مع الكون والناس والحياة » . وفى ذلك أيضا كتب الجمالى (١٩٦٧ ، ص ١٤٨) موجزا رأيه فى التربية القرآنية ، بعد تفصيل مسهب بقوله : « ... أنى لا أعرف كتابا فى التربية قديما كان أو حديثا ، يحوى الثروة التربوية العظمى فى الأهداف والمحتويات والأساليب مقرونة بالتسامى والواقعية والشمول والاتزان كالقرآن الكريم » .

ومن أساليب التربية فى القرآن الكريم أسلوب التربية بالتلقين والمحاكاة ، وباتباع القدوة ، وبالتعليم ، والممارسة والتعود ، وبالعمل ، وبالتكرار ، وباستعمال المنطق والمحاكمة العقلية ، وبالتأثير فى النفس واثارة العواطف ، وأسلوب القصة والبيان المعجز ، والحوار ، والمساءلة ، والوعظ وضرب الحكمة ، واستعراض الأمثال ، وتقرير الواقع ، واستخلاص العبرة ، واستخدام الحس فى التأمل والتفكر والتدبر ، وشفافية الروح ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأسلوب الترغيب والترهيب ، والبشارة والنذير ، والتعذير والقصاص ، وقبول التوبة والغفران ، ... الخ .

تلك هى بعض أساليب التربية الاسلامية كما وردت فى القرآن الكريم ، وهى تتعاون كلها فى تحقيق هدف واحد هو تربية الانسان الصالح ، ويستخدم منها ما يتلاءم مع طبيعة كل انسان ، وامكاناته ، وتهيؤه النفسى ، وسنه ، وقدرة ادراكه ، الا أن التعلم بالعمل يبقى من أهم أساليب تلك التربية الربانية ، فتكوين الأخلاق الفاضلة لا يتم بالوعظ

فقط ، ولا بالحفظ وحده ، ولا بالاقتناع العقلى بمفرده ، بل يحتاج الى ممارسة فعلية يقوم بها الانسان حتى يتعود هذه الأخلاق الفاضلة فتصبح جزءا من كيانه ، وطبيعة فيه ، لا يطمئن قلبه بغيرها ، ولا يرتاح ضميره اذا خرج عليها . فتعود المرء على النظام والأمانة ، وضبط النفس ، والتعاون مع غيره ، والتسامح مع المخالفين له ، والتضحية فى سبيل المجموع يتطلب مرانا وممارسة من الانسان طوال حياته حتى تتأصل تلك الخصال فيه ، وهذا هو أسلوب الاسلام فى التربية بالعبادة ، فالنطق بالشهادتين ، واقامة الصلاة على ميعادها ، وايتاء الزكاة كاملة فى وقتها ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ، والجهاد فى سبيل الله ، فى طهارة مادية ومعنوية معا هى بعض أساليب تلك التربية الاسلامية القرآنية .

هذا موجز لأساليب التربية فى الاسلام ، ولو اتجه المتخصصون الى استعراض آيات القرآن الكريم وفهمها لخلصوا منها الى صور عديدة مشرقة لأساليب هذا النهج الربانى فى التربية الذى يتميز باتزان محكم دقيق ، وكيف لا وهو من الله خالق الانسان ومبدع الوجود !!

فالاسلام حينما يهتم بتربية الجسد بالغذاء فهو يعطيه اياه بالقدر المضبوط الذى لا يضعفه ولا يتخمه ، وهو حين يهتم بالرياضة يحددها فى الاطار الذى لا يلهيه ، ولا يغويه ولا يفسده ، بالتربية العسكرية يجعله يقبل عليها حماية لدينه ، لا استعلاء على الناس أو تجبرا فى الأرض ، وهو حينما يؤكد على القيام بالعبادات يؤكد على ذلك بالقدر اللازم لصلاح أمره ، دون رهبانية وانقطاع عن الحياة أو انشغال بأمور الدنيا عن الآخرة ، وحينما يهتم بالعمل الجاد الصالح يؤكد عليه دون مبالغة مهلكة ، أو كسل مفسد ، وحين يهتم بالجسد اذا مرض يوصى بالعلاج الناجح ، دون مبالغة أو تفريط .

والتربية الإسلامية اذ تهتم بالجوانب الروحية فى الانسان ، وتربيها بالعبادة فأنها تربطه فى ذلك بخالقه ، فلا يترك لنفسه فى الشدة حتى تقضى عليه ، لأن له ربا يلجأ اليه ، ولا يطغيه الرخاء فيتجبر

فى الأرض ، لأنه يعلم أن الخير كله من الله وأن مـــرده اليه ، وتعوذه التسليم فى القضاء ، لأنه لا راد له ، ولا فائدة من الانهيــار أمامه ، وتنشئه على حب الحياة ، على أنها مضمار التسابق فى الكمال الإنسانى بالاختيار والوعى ، لا دار جشع وطمع وحب فى السيطرة والتملك بحق وبغير حق ، وعلى أنها دار فناء ومزرعة لدار أخرى خالدة ، وتنشئه كذلك على حب الناس وخفض الجناح لهم ، والعمل على نفعهم . لأن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، وفى نفس الوقت تعوده الاستعلاء على كل جبار فى الأرض لأنه لا ألوهية لغير الله ، ولا سلطان لأحد سواه . هو مالـــك الأنفس ، لا يأخذها غيره ، وواهب الأرزاق لا يبســـطها الا هو !!

ومن أساليب التربية الاسلامية للنفس البشرية تعويدها على النظام والطاعة وعلى العبادة المنتظمة وتأديبها بالوعظ والارشاد ، وبمحاسبة النفس يوما بيوم ، وباســتنفار الطاقات المختلفة فيها واثارة عواطفها بالترغيب والترهيب وبالرجاء والخوف ، وبالحـــب والكره ، وبالواقع والخيال ، وبالمحسوس المدرك والغيب المنبأ عنه وبالمــادية والمعنوية ، وبالفردية والجماعية ، وبالالتزام والتطوع ، وبقبول التوبة والغفران .

وسائل التربية الاسلامية :

تتعدد وسائل التربية الاسلامية بتعدد أساليبها ، فهى تســـتخدم كل وسيلة تمكنها من غرس الايمان فى النفوس البشرية وتكوين عاطفة قوية دافعة الى السلوك بموجبه وذلك باتباع القدوة الحسنة ، وباستخدام الحكمة والموعظة ، وبالتعود على العبادات ، وبالاقتناع العقلى وبيـــان حاجة الانسان دوما الى الله ورعايته ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبحسن توجيـــه الطاقات البشرية وملىء الفراغ فى حياتها بالأعمـــال البناءة ، وبسرد الأحداث والعبر ، وبالتعذير والعقوبة والقصـــاص ، وبالعلم فى مختلف ميادينه خاصة القرآن الكريم وما به من اعجاز بيانى وتشريعى وتربوى وعلمى وتاريخى ، مما يؤكد على أنه لا يمكن أن يكون الا من صنع الله ، وكذلك استخدام نتائج العلوم الحديثة فى تأكيـــد

حاجةُ الإنسان والكون إلى خالق عظيم مغاير فى صفاته وأحواله لهما ، وعلى حكمته وعلمه استنتاجا من بديع صنعه ، وعلى رعايته لهذا الكون بما فيه ومن فيه ، وعلى حاجة الجميع الى تلك الرعاية في كل لحظة من لحظات الوجود ، وقبل ذلك وبعده ، فإن من وسائل التربية الاسلامية وصل الناس بالله ، وازالة العوائق التى يمكن أن تحول دون ذلك ، بالدعوة المستمرة الى طريقه بالحكمة والموعظة الحسنة ، سيرا على درب الأنبياء واقتداءً بهم ، والعمل على تطهير المجتمعات الانسانية من كل ما يمكن أن يحول دون ذلك .

ومن وسائل التربية الإسلامية للعقل الإنسانى : تدريبه على طريقة الاستدلال باستخدام المنطق والمحاكمة العقلية ، وعلى المنهج العلمى المبنى على الملاحظة والاستنتاج أو التجربة والملاحظة والاستنتاج ، واستخدام ذلك فى التعرف على نواميس الكون وتسخيرها فى عمران الحياة على الأرض وازدهارها .

والتربية الاسلامية فى ذلك لا تترك الانسان لحدود فكره وحسه فقط بل تعطيه قدرا من المعرفة بالغيب يعينه على فهم رسالته فى الحياة ومعرفة مصيره بعدها ، وهذا القدر من العلوم الغيبية محدود بما يستطيع الانسان تحمله ، وبواسطته يتمكن الانسان من اقامة شريعة الله فى الأرض والتى تعلمه حقوقه وواجباته فى تفصيل واعجاز .

خاتمة

تتلخص أزمة التعليم المعاصر فى تزايد الأمية بنوعيها : أمية الجهل بالقراءة والكتابة ، وأمية الجهل برسالة الانسان فى هذه الحياة ، وكلتا الأميتين أخذ فى الازدياد بين الناس وسط عصر تميز بانفجار حقيقى فى المعرفة . فالأولى يتزايد فيها مجموع عدد الأميين البالغين فى العالم (٧٨٣ مليون نسمة فى سنة ١٩٧٠ ، بنسبة ٣٤٫٢٪ من مجموع تعداد العالم) وذلك نظرا للانفجار السكانى وللأزمات الاقتصادية التى تحول

دون مسايرة التوسع فى التعليم للزيادة السكانية (خاصة فى الدول النامية) ، والثانية تكاد تجرف العالم كله نظرا لتصفية نظم التعليم الدينى فى العالم بصفة عامة ، وفى العالم الاسلامى بصفة خاصة ، واحلالها بنظم تعليمية علمانية لا دينية ، أصبحت تدور بالعملية التربوية وبالمعارف الانسانية كلها فى اطار مادى صرف ، وبذلك تأتى جزئية ، قاصرة ، منقوصة ، لا يمكنها أن تقوم بدورها التربوى أو التعليمى على الوجه الأكمل • وقد زاد هذه العلمانية تعمقا عملية الفصل المتعمدة بين التعليم الدينى وغيره (فى الدول التى بقى لها شىء من التعليم الدينى) خاصة فى دول العالم الاسلامى ، والتضييق على المعاهد الاسلامية حتى تم حصر نشاطها فى دور تقليدى يتلخص فى المحافظة على التراث ، ونقله من جيل إلى جيل ، وذلك درءا لتيار الفكر الإلحادى الوافد من الشرق ومن الغرب ، والذى تغلغل فى مختلف مجالات المعرفة الانسانية ، وأدى الى صياغتها صياغة مادية بحتة ، تنكر أو تتجاهل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، حتى فى المجتمعات التى يؤمن أفرادها بذلك • ثم وقوف المسلمين — و فى مقدمتهم رجال التربية — موقف المستسلم لتلك النظم التعليمية اللادينية السائدة ، وباختصار شديد : فإن أزمة التعليم المعاصر تتجسد فى غياب المنهج الإسلامى للتربية ، وفى غيابه من الدول الاسلامية بصفة خاصة ، والتى كان فى امكانها أن تقدم للعالم النموذج التطبيقى فى كيف تكون التربية •

وتتلخص العيوب الرئيسية لنظم التربية المعاصرة فيما يلى :

أولا : أن فلسفتها لا تقوم على أساس من وحدانية الله والايمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، بل تعتمد على فلسفات وضعية انحرفت بالانسان عن المنهج الربانى وعن الصراط المستقيم •

ثانيا : أنها تقوم على أساس نظم تقليدية ، وقوالب جامدة ، تفرض على الطلاب فرضا فى أطر زمانية ومكانية محددة ، تحرم العملية التربوية من الاستمرارية والشمول •

ثالثا : اقتصار هذه النظم (بحكم طبيعة الفلسفات الوضعية التى تقوم عليها) على الجوانب المادية فقط فى الانسان ، مما ساعد على نمو هذه الجوانب وضمور الجوانب الأخرى ، وبالتالى خروج الانسان عن اطار انسانيته المتسمة بتوازن محكم بين مادة وروح •

رابعا : سيطرة المنهج المادى على الفكر التربوى المعاصر جعل المعرفة معزولة عن الحكمة وأدى الى ضياع الجانب الأخلاقى والدينى ، وبضياعه انحسر دور التربية فى نقل المعلومات والتدريب على قدر من المهارات ، وقد أفرز ذلك النوع من التعليم إنسانا ماهرا غير ملتزم بالأخلاق كان من أبرز أسباب الأزمات العالمية الراهنة •

خامسا : افتقار المربين أنفسهم للنظرة السوية الى الانسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله ، مما أدى الى فقدهم لدورهم كقدوة حسنة يقتدى بها الطلاب ويتمثلون سلوكها ، وبذلك افتقرت العملية التربوية الى أحد عناصرها الأساسية •

سادسا : فقدان الرغبة الحقيقية فى التعلم نظرا لضياع الجانب الدينى والأخلاقى ، وللقدوة الحسنة مما حدد هدف الطلاب فى الحصول على المؤهل لاستخدامه كوسيلة فى الوصول الى وضع اجتماعى ومالى أفضل ، بينما الأصل فى التعليم أنه ضرورة من ضرورات الوجود الانسانى وليس وسيلة للاستعلاء الاجتماعى •

سابعا : افتقارها الى الجوانب الانسانية كالعلاقة النبيلة بين الطالب والأستاذ • وبينه وبين زملائه مما أدى الى تدهور الحياة التعليمية تدهورا ملحوظا ، ومن مظاهر ذلك التدهور انصراف الطلاب عن التعليم وانشغالهم بالعديد من حركات الرفض السلبية التى أخذت تجتاح المجتمعات المعاصرة كلها • ومن مظاهره أيضا تدهور النظام التربوى ذاته ، فالقبول مبنى على التمييز بين الناس ، ومناهج التعليم محددة جامدة تقتل روح البحث والاستقصاء والابداع وتشل من حرية كل من الطالب والأستاذ ، ونظام الامتحانات نظام موروث من القرون الوسطى

وقد أثبت قصوره فى قياس قدرات الطلاب وتقييم مستوياتهم ، وأدى الى فشل الكثيرين منهم •

ثامنا : هذه النظم التربوية قامت على الفصل بين المعارف ، وتضييق الاختصاصات الى درجة جعلتها (بصورتها الراهنة) لا يمكن أن تتدخل فى القضايا الكلية لمجتمعاتها مثل قضايا الحرب والظلم والاستعمار والاضطهاد العنصرى ، ومشاكل الجهل والجوع والحرمان ، والقلق ، والآلام ، وأخطار التلوث ، وتناقص المواد الغذائية والموارد الطبيعية ، واستعباد الآلة للانسان ، والتحلل الأخلاقى والبعد عن الدين ، وهذه قضايا لا يمكن للمجتمع أن يعيش دون أن يهتم بها ويصل الى وسائل لحلها ، واقصاء التربية المعاصرة عن مثل هذه القضايا الكلية (مهما كانت الأعذار) سيجعلها دائما فى معزل عن مشاكل المجتمع وقضاياه ، وهذا ـ فى حد ذاته ـ اهدار لقيمة العلم ولدور المتعلمين ، كما أنه يهدد وحدة الجنس البشرى ومستقبله •

تاسعا : أن هذه المناهج التربوية الوضعية القاصرة (سواء أكانت فى العالم الليبرالى أو الشيوعى) قد سيطرت على الفكر التربوى فى العالم بحكم سيطرة دولها (الكتلتين الكبيرتين) وقد انتقلت عدوى ذلك الى البلاد الاسلامية ، وغيرها من دول العالم الثالث مما أفسد مناهج التربية فيها لأنها تتنافى مع عقائدها وفكرها وتراثها ، ومع احتياجاتها وامكانياتها المادية ، مما يؤدى غالبا الى انفصام فى شخصية متعلميها ، وضعف لمردودها ، وبطالة بين المتعلمين وعواقب ذلك النفسية والاجتماعية والاقتصادية الوخيمة ، وهى من الأمور التى تهدد المجتمعات الانسانية بالانهيار •

هذه بعض نقائص النظم التربوية المعاصرة التى تقف من وراء أزمة التعليم المعاصر ، وهذه لن تحلها الاصلاحات الجزئية من قبيل الدعوة الى جعلها تربية مستمرة ، حرة ، مفتوحة للجميع ، ونزع الطابع الجامد عنها ، أو القضاء على التمييز بين مراحلها (الابتدائى ، المتوسط ،

الثانوى ، والعالى) ، وعقد الصلات بين التعليم والمجتمع ، أو الاهتمام بالتربية قبل المدرسة ، أو جعل التعليم شاملا لا يفصـل بين تعليم عام وتقنى ، أو ربطه بالعمل ، أو استخدام التقنيات الحديثة بين وسـائله • فهذه كلها أمور جزئية لا تستطيع حل مشاكل التربية التى تعتبر من أعقد العمليات الانسانية وأخطرها ، ولذلك فالعلاج لابد أن يكون علاجـا كليا شاملا ، وهذا العلاج الكلى الشامل لا يمكن أن يكون من وضع بشر ، لأن البشر محكومون بحدود قدراتهم ، وبقصور امكانياتهم ، ومن ثم فالعـلاج لا يمكن أن يكون موجودا الا فى رسـالة من السماء الى الأرض • والرسالة السماوية الوحيدة الموجودة بين أيدى النـاس ، والمحفوظة بنفس اللغة التى نزلت بها دون تحريف أو تغيير أو تبديل : هى الإسـلام كما يعلمه لنا القرآن الكريم • والتربية القرآنيـة هى قمة النظم التربوية قاطبة لأنها تربية الله الذى خلق ، والذى هو أدرى بطبيعة خلائقه وبأفضل الوسائل لتربيتهم •

وتتلخص فلسفة التربية الاسلامية فى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، والالتزام بالعمل الصالح ، والتعاون عليه ، والتعرف على الحق والتواصى به ، وبناء الانسان بناءً متكاملا (يقوم على تأديب النفس ، وتصفية الروح ، وتثقيف العقل ، وتقوية الجسد) حتى يصل الى الكمال الانسانى المتسامى باستمرار ، وصولا اختياريا واعيا ، فى اطار من القيم الربانية ، والأخلاق القرآنية التى ينشأ من الصغر عليها ، ويعود على التعـامل بها حتى تصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانه •

والتربية الاسلامية تعتبر العلم النافع مكملا لإنسانية الانسـان ، ومعينا له على القيام بخلافة الله فى الأرض ، ومن ثم تجعل لكل مولود حقا طبيعيا فى التربية والتعليم ، وتعتبر طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وتأخذ التربية بشمولها للجوانب الجسدية والعقلية والنفسية والروحية فى الانسان ، وتعمل على تعهد كل هذه الجـوانب والنمو بها فى عدل وتوازن ، وهى تعتبر الخير أصيلا فى الإنسـان ، ومن ثم فمن واجبها

المحافظة على فطرته السوية وتنميتها على ذلك الخير حتى تنطبع به ، وقمة الخير فى الانسان : هى العبودية لله وحده بلا شريك • لأنها تجسيد لمعنى التكريم الذى كرمه به الله • والتربية الإسلامية تعتبر حب الخير وحب الحق وحب الجمال من القيم الأصيلة فى النفس البشرية ، وأن من واجب التربية المحافظة على تلك القيم وتنميتها ، وهى تعتبر التربية عملية مستمرة مواكبة لرحلة الحياة من المهد الى اللحد • بل تمتد بها إلى ما قبل المهد وذلك ببناء المجتمع الصالح المتعلم المستنير الذى يقنن لحسن اختيار الوالدين فى اطار من الشرعية التى وضعها الله ، اعدادا لمقدم الجنين الصالح ، ثم للعلاقة العائلية المستقرة ، وحقوق الفرد (طفلا ، وشابا ، ورجلا ، وكهلا) وواجباته تجاه أهله ومجتمعه وقومه، بل تجاه الانسانية كلها • وهى من القضايا التى تهتم بها التربية الاسلامية لأنها فى أساسها تربية انسانية ، غير محدودة بحدود اقليمية ضيقة ، وهى تربية تتحقق فيها المساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأجناسهم ، وبين الذكر والأنثى ، وهى تأخذ فى الحسبان تباين الأفراد فى قدراتهم وملكاتهم ومواهبهم واستعداداتهم ، فتقوم على أساس من التربية الفردية الحرة غير المقيدة بأغلال النظم العلمانية ، ينهل منها الطالب بغير قيود مسبقة ، ويتحرك فيها حركة أفقية ورأسية حسب ميوله وقدراته وبمشورة أستاذه ، وحسب ظروف حياته وعمله ، بل تيسر له خارج نطاق المعاهد التربوية بصور شتى (المسجد ، الندوات ، المحاضرات ، الاعلام ، البرامج التدريبية والتعليمية المختلفة ، ••• الخ) ، كما تدعو الى المشاركة الفعلية من جانب الطالب ، الذى يعود على التعلم الذاتى ، ولا يعتمد على التلقين الحرفى •

والتربية الاسلامية اذ تحسن اختيار المربين وتشترط فيهم شروطا عالية ، فانها تهتم بهم اهتماما بالغا وتعمل على أن توفيهم حقهم وقدرهم ، فهم القدوة الحسنة ، والنموذج الذى يقتدى به ، وذلك انطلاقا من رؤيتها: أن العلم بدون عمل صالح : علم ناقص •

ومن سمات الشمول فى التربية الاسلامية شمول مصادر المعرفة فيها، فهى لا تقصر ذلك على العلم البشرى المكتسب وتراث الانسانية المتراكم فيه ، بكل حسناته وأخطائه ، ومزاياه وعيوبه ، ولكنها تجعل بجانبه معيارا ربانيا هو الوحى السماوى المنزل الذى اكتمل فى القرآن الكريم وهو المصدر الرئيسى للتربية الإسلامية ، وتأتى بعده السنة النبوية المطهرة ، أما فى بقية الأمور فالانسان مأمور باستخدام حواسه وعقله فى عملية من الكشف المستمرة وتحكيم العقل والاستدلال بالبرهان المنطقى ورفض التقليد الأعمى ، والجمود على المفاهيم الخاطئة .

وحتى هذه المعارف الكونية (فى التربية الاسلامية) ليست معزولة عن الحكمة ، ولا مجردة من الايمان ، فاذا كان العلم التجريبى وتطبيقاته فى مجال التقنية علما بالمادة وصفاتها وقوانينها ، ومحاولة لتسخيرها ، وعلما بالكون وسننه ، فإن الايمان معرفة بالله خالق المادة ، ومؤسس قوانينها . ومبدع الكون ، وواضع نواميسه ، وخالق الإنسان ، ومستخلفه فى الأرض ، وواهبه تلك القوى التى تعينه على تسخير الكون وسننه من أجل القيام بواجبات الخلافة ، كلاهما علم لا غنى للانسان عنه .

وفوق ذلك كله فالتربية الاسلامية تنطلق من التصور الاسلامى الصحيح للانسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله ، ومن ثم فهى تعمل على تنشئة الانسان الصالح الذى يدرك حقيقة دوره فى الحياة .

من ذلك يتضح أن علاج أزمة التعليم فى العالم اليوم (بأبعادها المادية والمعنوية) هو فى قيام التربية الاسلامية الشاملة واقعا حيا بين الناس ، ونموذجا يقتدى به ويهتدى بهديه . ولما كان ذلك غير محقق اليوم ، باستثناء بعض البادرات الطيبة التى بدأت تنشط بصورة محدودة فى أماكن متناثرة من العالم الاسلامى ، فقد خلص البحث الى اقتراح خطوط عريضة لما يجب أن تكون عليه استراتيجية التربية الاسلامية اليوم . أسأل الله العلي القدير أن ينفع بها ، وأن يهيىء لها أذنا صاغية تستمع اليها .

والله الموفق وبه نستعين .

قائمة ببعض المراجع المختــارة

اولا : المراجع العربية

ابن عاشور ، محمد الطاهر (١٩٦٥) : أليس الصبح بقريب : ٢٦٧ صفحة ، الشركة التونسية للتوزيع (تونس) .

أمين ، مصطفى (١٩٢٥) : تاريخ التربية . مطبعة المعــارف (القاهرة) .

الأهوانى ، أحمد فؤاد (١٩٦٨) : التربية فى الاسلام ، ٣٨٠ صفحة . دار المعارف بمصر (القاهرة) .

البوطى ، محمد سعيد رمضان (١٩٦١م) : تجربة التربية الاسلامية فى ميزان البحث : ١٣٢ صفحة . المكتبة الأموية (دمشق) .

الجمالى ، محمد فاضــل (١٩٦٧) : تربية الانســان الجديد (محاضرات فى مبادىء التربية ألقيت بالجامعة التونسية) ، ٣٠٩ صفحة . الشركة التونسية للتوزيع (تونس) .

دراز محمد عبد الله (١٩٤٨) ، (١٩٧٤) دستور الأخلاق فى القرآن : ترجمة عبد الصبور شاهين ، مراجعة السيد بدوى ، مؤسسة الرسالة (بدون) ودار البحوث العلمية (الكويت) .

ديوى ، جون (١٩٦٦) . المبادىء الأخلاقية فى التربية ، ترجمــة عبد الفتاح السيد هلال ، مراجعة أحمد فؤاد الأهوانى ، ١٤٠ صفحة . الدار المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة) ، (يناير ١٩٦٦) .

شديد ، محمد (١٩٦٩) منهج القرآن فى التربية ، ٣٧٠ صفحة . مؤسسة الرسالة (بيروت) .

شلبى ، أحمد (١٩٥٤) : تاريخ التربية الاسلامية . دار الكشاف (بيروت) ، ٤٤٨ صفحة .

عبد الوهاب ، حسن حسنى (ناشر) : (١٣٤٨هـ الموافق ١٩٢٨م) ، آداب المعلمين (مما دون محمد بن سحنون عن أبيه) : ٦٤ صفحة (تونس) .

الغزالى ، الامام أبو حامد محمد بن محمد (٤٩٥هـ الموافق ١١٠١م) : احياء علوم الدين : الجزء الأول والثالث : دار المعرفة للطباعة والنشر (بدون) .

الغزالى ، الامام أبو حامد محمد بن محمد (٥٠١هـ الموافق ١١٠٨م) : أيها الولد : ترجمة توفيق الصباغ ، تقديم جورج شرر (الطبعة الثالثة) اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع (بيروت) ، (١٩٦٩) .

فرانكل ، تشارلس (محرر) : (١٩٦٣م) نظرات فى التعليم الجامعى ، ٢٧٨ صفحة : ترجمه وقدم له محمد توفيق رمزى ، صدر له حسن جلال العروسى ، دار المعرفة (القاهرة) . الكتاب نشر فى ١٩٥٩م فى نيويورك بواسطة هاربر واخوانه) .

فهمى ، أسماء (١٩٤٧م) : مبادىء التربية الاسلامية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة) .

فور ، أيدجار ومن معه (١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م) : تعلم لتكون ، ٤٠٣ صفحة ، ترجمة حنفى بن عيسى ، اليونسكو / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر) .

القاضى ، على (١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م) : ديناميكية التربية الاسلامية : التضامن الاسلامى : السنة الثلاثون ، الجزء الثانى عشر (جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ الموافق يونيو ١٩٧٦م) ص ٣٥ ـ ص ٤٣ (مكة المكرمة) .

القرضاوى ، يوسف (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م) : « فقه الزكاة » (دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها فى ضوء القرآن والسنة) من جزئين ١٢٢٧ صفحة (دار الارشاد ، بيروت) •

القرضاوى ، يوسف (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م) : الحل الاسلامى فريضة وضرورة ، ٢٦٣ صفحة مؤسسة الرسالة (بيروت) •

قطب ، محمد • (١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م) : منهج التربية الاسلامية ، ٢٩٤ صفحة ، دار الشرق (بيروت) •

الكنانى ، بدر الدين أبو اسحاق ابراهيم سعد الله ابن جماعة (المتوفى ٧٣٣هـ) : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم : طبع تحت ادارة جمعية دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد ـ الدكن ـ (١٣٥٣هـ) صفحات (٢١ + ٢٣٦) •

المصرى ، محمد أمين (١٩٦٧) لمحات فى وسائل التربية الاسلامية وغاياتها : ٢٥٤ صفحة ، دار الفكر (بيروت) •

المودودى ، أبو الأعلى (١٩٥٢م) : منهج جديد للتربية والتعليم • لاهور •

النجار ، زغلول راغب محمد (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م) عن ضرورة اعادة كتابة العلوم من وجهة النظر الاسلامية : مؤتمر التضامن الاسلامى الأول فى مجالات العلوم والتكنولوجيا (الرياض) •

الندوى ، أبو الحسن على الحسنى (١٣٨٨هـ ١٩٦٩م) : نحو التربية الاسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الاسلامية ، ١٠٢ صفحة ، دار الارشاد (بيروت) •

الوجاج ، الحسين (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) : معاهد العلوم وتطورها فى الاسلام ، المجلة الاسلامية ـ العدد الثانى ، ص ٨٥ ـ ص ٩١ (الرباط) •

يالجن ، مقداد (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م) : منهج التربية الايمانية : المسلم المعاصر : العدد الخامس (محرم ـ ربيع أول ١٣٩٦هـ الموافق يناير ـ مارس ١٩٧٦) .

يالجن ، مقداد (١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م) : خصائص التربية الاسلامية ومميزاته الأساسية ، المسلم المعاصر ، العدد السادس (ربيع ثانى ـ جمادى الثانية ١٣٩٦هـ ، أبريل ـ يونيو ١٩٧٦م) ص ٨٧ ـ ص ٩٦ .

يالجن ، مقداد (١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م) تحت الطبع ، توجيه المتعلم الى أفضل طرق التعليم فى ضـوء التفكير التربوى والاسـلامى ، دار البحوث العلمية (الكويت) .

***

ثانياً : المراجع الأجنبية

Ahmed, Khurshid (1968) : Principles of Islamic Education 4th. Edition, pp. 1 — 26 : Islamic Publications Ltd, Lahore Decca — Karachi.

Ahmed, Khurshid, (Editor), (1975) : Islam, its meaning and message, Islamic Council of Europe (London).

Bell, B.I. (1949) : Crisis in Education, a Challenge to American Complacency:Mc Graw-Hill Book Co., Inc., New York.

Bowden, Lord B.V. (1971', The Crisis of World universities : 700 Years of Anarchy : Philos, J. Vol.3, No.2 PP. 71—92.

Bowden, Lord B.V. (1974) : Opening Address, Conference of crisis in Engineering and Scinece Education, UMIST (Manchester, England).

Coombs.P.H. (1968) The World Educational Crisis : pp.1—X + 1 — 241, Oxford, University Press (New York), London, Toronto).

Council on Education in The Gealogical Science (C.E.G.S.) Publication No. B (1971).

Di Vesta, F.J. & Thompson G.G. (1970) : Educational Psychology, Instruction and behavioral Change, (Applefon-Century — Crofts Educational Division). Meredith Corporation (New York) pp. 718.

El-Naggar, Z.R. (1975) On a proposed System for teaching Geology at the university level : Seminar on methods of undergraduale teaching (Science) : Kuwiat University,. (May 3, 1975).

Fletcher, C.S. (Editor), (1962) : Education the Challenge Ahead.

Gheith, M .A. (1974) : Towards and effective, humane Earth Sciences Education : Second Arab Mineral Wealth Conference (Jeddah, November 2—8, 1974) Conference Documents, Background Papers pp. 122 — 139.

Jaradat, Izzat, (1975) : Islam and education for development : Proc., 4th., Annual Conuention of the Association of Muslim Social Scientists Vol. 1, pp. 59 — 70.

Khawaja, I. (1976) : Fundamental Problems of Education in Muslim Countries : Proc. Islamic Solid. Conf. Sci. & Techn. (Riyadh/Saudi Arabia), pp. 134 — 144.

Mather, Sir Willam (1974) : An industrialists View : Conference on Crisis in Engineering and Science Education in the West, UMIST, July, 1974.

Mc Donald, F-J. (1969) : Educational Psychology, Second Education 6th. Printing, Wadsworth Publishing Co., Inc., (Belmont, California), 710 pp.

Nadawi, S. Abul Hasan Ali (1976) : Significance of the System of Education in Muslim Countries and its far-reaching effect on their leadership and intellectual trends; Al-Ittihad (Indianapolis/Indiana) Vol. 13, No. 1, (April, 1976), PP. 26 — 30.

Niblett, E.R. (Editor) 1963 : Moral Education in a Changing Society; Faber & Faber Ltd., (London).

Niblett, W.R. (Editor) 1969 : Higher Education : Demand And Responsibility; pp. 1-261 +i·— x. Tavistock Publications (London-Sydney-Toronto-Wellington).

Phenix, P.H. (1966) : Education and the Worship of God; The Westminister Press (Philadelphia).

Rosenhead, J. & Norden, T. (1963) : Threats to University Independence; New Scientist pp. 604 (March, 1963).

Tibawi, A.L. (1967) : Arabic And Islamic Themes Historical, Educational and Literary Studies); 409, Luzac & Co., Ltd., (London).

Wingo, G.M. (1974) : Philosophies of Education : An Introduction pp. 1 — 367, D.C. Heath and Co., (Lexington/Massachussetts; Toronto, London).

Waddy, Charis (1975) : The Muslim Mind pp.i— XVII + 1—204, Longman (London; New York).

البديل الحضاري للمجتمع المعاصر

د. عزت جرادات

تركيب المجتمعات :

لقد اختلفت الآراء وتعددت وجهات النظر فى تحديد مفهوم المجتمع لدرجة لم يتوصل علماء الاجتماع الى تحديد مفهوم واحد له فهو تركيب متكامل لعلاقات اجتماعية ما بين أفراد ومجموعات ومؤسسات ، وهو الاطار الذى يتمكن فيه الفرد من ممارسة نشاطاته الحياتية كاملة ، فى علاقاته مع نفسه ، ومع الفئات والمجموعات الأخرى ، وارتباطه بالمصير المشترك لتلك الجماعات والفئات وما تتأثر به من أحداث وتغيرات .

وتنبثق عن المجتمع ـ أى مجتمع ـ طريقة حياة يمكن تلمسها عبر ما يسمى بثقافة المجتمع التى تحدد أنماط تفكيره ، ونشاطاته ، ومشاعره على أسس من المعرفة والمعتقدات والأخلاقيات ، والعادات ، والقدرات المكتسبة لدى أفراده . فالأفراد فى حد ذاتهم لا يكونون مجتمعا إلا إذا امتلكوا ثقافة ، وكانت لهم مقاييس عامة مشتركة للخير والشر ، للحق والباطل ، للخطأ والصواب ، للمناسب وغير المناسب وتتقارب اتجاهاتهم فى تفسير معارفهم والبيئة التى يعيشون فيها : فالثقافة جزء تكوينى من تركيب المجتمع وأفراده وهى لذلك تراث طبيعى للبشرية

وقلما يتجه الانسان ، كفرد فى مجتمعه ، الى محاولة لتقويم أنماط مجتمعه السلوكية بموضوعية بعيدة عن تحيزه اللاشـعورى غير متأثر بثقافة مجتمعه • وقد لا يدرك ما فى ثقافة مجتمعه من خيرات وتجارب الا اذا وجد نفسه فى موقف احتكاك أو تفاعل أو صراع مع ثقافة مغايرة •• مثلما يحصل تماما مع ساكن قاع البحر •• فان آخر شىء يفكر فى اكتشافه ومعرفته هو الماء • وقد لا يفكر فى اكتشافه إلا اذا أوجدته الصـدفة على السطح وتعرض للهواء • وحتى ندرك أبعاد ثقـافة المجتمع فانه يمكننا تحديد مقوماتها لثلاثة عناصر هى :

مؤسسات المجتمع ، بما فيها من أنظمة وضوابط سلوكية •

افكار المجتمع ــ اى المعرفة والمعتقدات •

المنجزات المادية للمجتمع : أى محصلة الانجاز الجماعى لأفراده •

فأهمية الثقافة ، تكمن اذن ، فى قدرتها على تزويـد المجتمع بالمعرفـة والتقنية اللتين تمكنان افراده من السيطرة على بيئتهم ، ومن حفاظهم على بقائهم جسديا واجتماعيا •

وهذه المقومات هى ما سـوف نقتصر على معالجتها اذا ما أردنا التحدث عن مؤسسات المجتمع ، فسوف تتنـاول منها أهم المؤسسات المؤثرة تأثيرا مباشرا على الأفراد • فالفرد لا يمكن له البقاء دون انتمـاء لمجتمع فالخبرات التى يكتسبها هى خلاصة ارتبـاطاته بثقافة المجتمع وممارساته الحياتية مع أفراده وأهم تلك المؤسسات :

١ ــ العائلة :

ويعتبرها علماء الاجتماع المؤسسة الرئيسـية فى التـأثير على الأفراد فى عملية « التطبع الاجتماعى » ويرجع تأثيرها الى ضعف الوليد البشرى وحاجته الى الرعاية ضمن علاقات عاطفية واجتماعية تؤدى الى قيم وأنماط سلوكية تتعمق فى الفرد •

٢ ــ المؤسسات الثقافية :

ان العائلة لن تكون قادرة بمفردها على تدريب الفرد واعداده لادوار مستقبلية فترتبط العائلة بالمؤسسات التى يتأثر بها الأفراد وهى ما يمكن حصرها ضمن المؤسسات الثقافية : كالمدارس النظامية ووسائل الإعلام • وتستطيع هذه المؤسسات أن تعمق القيم التى تهدف كل منها الى تحقيقها فى الأفراد •

٣ ــ المؤسسات الاجتماعية ــ الاقتصادية :

يتعذر فى المجتمع المعاصر أن ينظر للمؤسسة الاجتماعية دونما اعتبار للبعد الاقتصادى الذى تنطوى عليه تلك المؤسسة • ولذا فان المؤسسات الاجتماعية ــ الاقتصادية ذات تأثير كبير على الأفراد • إلا أن مردود هـذا التأثير قد لا يلمس على المستوى الفردى ، فيأخذ طابعا جماعيا عاما يؤثر فى المجتمع وتركيبه كما يؤثر المجتمع بتغييراته فى تلك المؤسسات الاجتماعية ــ الاقتصادية ، أما أفكار المجتمع ، فيمكن تحديدها بالمعتقدات والمعارف والقيم التى تتعلق بالأفراد وارتباطاتهم بعالمهم الذى يعيشون فيه فهى تشمل الأفكار العامة التى يعتمدها الأفراد فى تكوين تراثهم الشعبى والدينى والعلمى والفلسفى والمسلكى • وهى تشمل القيم ، والمثل العليا التى يعتمدونها فى تحديد أهدافهم وسلوكهم ولتحديد معنى النجاح والتبرير والشرف ، والشجاعة الوطنية ، والولاء والاخلاص والكفاءة • وهى تشمل المعايير والمقاييس التى يعتمدها الأفراد فى تكوين أنماط أحكامهم وتقويمهم لما يجرى فى مجتمعهم • فيكون الأفراد قادرين على تقبل مبادىء عامة مشتركة فيما بينهم فى المعارف ، والممارسات ، وأما المنجزات المادية فتشمل ما يبدعه ويستخدمه الانسان أو الأفراد ، بدائية كانت تلك المنجزات كالفأس الحجرى ، أو حديثة كالحاسب الالكترونى ، إلا أن قيمة هذه المنجزات هى فى حجم مردودها واستخدامها لخدمة البيئة وللغاية التى يحددها الأفراد أنفسهم •

نمو المجتمعات والحضارات :

ان الحصيلة النهائية لدور المجتمع التاريخي تقــاس بمدى دوره الحضاري : حماية ونقلا أو ابتكارا أو ابداعا ٠ وتختلف الآراء والاتجاهات في قياس هذا الدور ٠ إلا أن آراء معظم علماء الاجتماع تتفق على أن المجتمعات تظل في نمو مستمر ما دامت قادرة على العطاء الحضارى فعلا وابداعا ومجابهة لكتلة العالم والطبيعة ، واستجابة للتحديات الدائمــة تهيئة وإعمارا وتمهيدا وتطورا ٠ ومن هذا المفهوم ، يمكننا القول : إن التاريخ الحضارى يبدأ مع الخليقة فى إعمار الإنسان للأرض بعدة كافية لهذا العمل وبامتلاك الشروط الأساسية لمجابهة العالم وتحويله وتغييره وتطويره وبما ركب فيه الخالق من عقل وروح وارادة وتكييف جسدى ، وبما هيأه الله فى الأرض وما حولها من امكانات فتنمو المجتمعات بقدر ارتباطها بالرسالة الحضارية للانسان على الأرض وربما لم تكن كلمة حضارة شائعة فى استعمالات العربية اللغوية أول مرة ، الا ان ابن خلدون يكاد يكون أول من نبه اليها واستخدمها فى (مقدمته) غير ان اصطلاحه الذى كان يستغنى به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشرى) الذى يقابل (الحضارة البشرية) ٠٠ ومهما يكن من أمر ، فان المصطلح الحضارى قد فرض نفسه فى القرن الأخير سيما بعد الاحتكاك الثقافى الشامل بين الشرق والغرب ٠

ان قبولنا للمصطلح الحضارى هو تسليمنا بالمقيــاس أو الدور الحضارى للمجتمعات فالمجتمعات التى التزمت بالدور الحضارى ، وبما دون أن تشعر ، حماية ونقلا أو ابتكارا أو ابداعا ، قد تركت حصــيلة من التراث الحضارى الذى أخذ مكانه فى البناء الحضارى العالمى ، فى حين أن المجتمعات التى لم تدرك دورها الحضارى عن قصد أو عن غير قصد ، لم تترك من التراث ما يمكن أن يأخذ مكانه فى بناء الحضــارة العالمية ٠ ولعــل من أقرب الأمثلة على ذلك ، مجتمع أثينــا ومجتمع اسبرطه ، أو مجتمع بغداد وغزو هولاكو ، أو مجتمع الشرق الاسلامى وغزو الصليبيين ٠ ففى حين نرى تراث مجتمع أثينا والمجتمع الاسلامى

فى بغداد أو فلسطين تراثا مرتبطا بالحيـاة ، فاننا لا نقرأ عن مجتمع اسبرطة أو هولاكو أو الصليبيين سوى الدمار والعدوان ... فنمو المجتمعات الحضارية هو تغير تاريخى فى دورة لا متناهية من الازدهار من مرحلة بدائية الى متطورة متقدمة .. تعتريه منعطفات حادة ... فعندما تبرز مسببات عامة للتغير التاريخى فان وضعا اجتمـاعيا جديدا يبرز كنتيجة حتمية .. وان عجلة التغير التاريخى لن تتوقف الا بعـامل دمار عام أطلق عليه ابن خلدون (الموت الأسود) وسواء قصد بذلك خط الغـزو المغولى ، أو شعوره ببـداية تفوق أوروبا على المجتمـع المسلم .. أو عوامل داخلية يتآكل المجتمع بسببها ، فان تفسيره هذا يتفق مع رأى علمـاء الاجتماع الذين يرون فى الحرب دمارا للتقـدم التكنولوجى .

ويرى هيجل أن النمو الحضارى هو مسألة دانيامية شاملة تنبثق من صراع النقيضين فى عالم الأفكار فى تسلسل طويل ينتهى الى مرحلة وصول العقل الى حقيقة الخالق .. واما ماركس فانه يأخذ عن هيجل دانيامية الحركة الحضارية المتولدة عن صراع النقائض . الا انه يقصرها فى نطاق المادة ووسائل الانتاج والظروف التى يعمل فيها ، أما توينبى فيرى النمو الحضارى وليد مقدرة الجماعة الانسانية على الاستجابة للتحديات البيئية الجغرافية والبشرية ، المحيطة بها ، ويتناسب حجم العطاء الحضارى كما ونوعا تناسبا طرديا مع حجم الاسـتجابة لمقاييس الكم والنوع وحينما يصـل تاريخ مجتمع الى منعطف حـاد ، فان دورة حضارته تدخل فى مرحلة حرجة ، فانه يصل الى المنطقة التى تتصل فيها نهاية عهد ببداية عهد آخر ، أو تتجـاوز فيها ماض مظلم مع مستقبل مشرق ويمكننا أن نستخلص من هذه الآراء أن نمو حضارة أى مجتمع يتوقف على تكامل عناصر الانسان والتراب والزمان : فالانسان : بما لديه من ثقافة ، وما له من مواهب وقدرات ، وبما يمتلك من امكانات مادية ، يستطيع أن يؤثر فى مجتمعه بفكره وبعمله وبماله وهذا يتطلب بعدا سلبيا يفصل انسان الحاضر عن تخلف الماضى وبعدا ايجابيا يصله بمقتضـيات المستقبل .

لقد مر انسان الغرب فى حضارته متأثرا بانسانيات الاغريق اللاتينية ، كما طبع ماركس كل القيم بوظائفها الاجتماعية ، أما الانسان العربى المسلم فقد جاءته الحضارة الاسلامية بتحديد البعدين السلبى والايجابى مرة واحدة فقد نفت الأفكار الجاهلية المرتبطة بما فى الانسان ، ثم رسمت طريق الفكرة التى تخطط للمستقبل بطريقة ايجابية .

وحينما نتكلم عن التراب ، كعنصر لنمو الحضارة ، فاننا لا نبحث فى خصائصه الجيولوجية أو الجغرافية .. ولكننا نعنى قيمته الاجتماعية المستمدة من قيمة مالكيه ، فالمجتمع المتخلف يكون ترابه على قدر من الانحطاط ، والمجتمع المتقدم يكون ترابه غالى الثمن ، فالتراب يكون على شيء من الانحطاط بسبب تخلف وضعف القوم الذين يعيشون عليه .. فكم من صحراء حولها أصحابها الى جنات خضراء .. وكم من جنات خضراء زحفت عليها الصحراء حيث وقف أصحابها موقف المتخلف الضعيف .. ان مثل هذا التحول فى الأرض الخصبة الى فلاة ثم الى صحراء ، يؤدى الى تحول فى الحياة الاقتصادية . فيفرض التراب على الانسان نمط حياة راكدة لا صلة لها بعطاء حضارى .

وأما الزمن وأثره فى البناء والتكوين الحضارى ، فهى فكرة متصلة اتصالا وثيقا بالتاريخ ، اذ أن تحديد فكرة الزمن ، تحدد معنى التأثير والانتاج فى الحياة فتخضع الحياة للتوقيت ولعامل الوقت فإذا دخل الوقت فى أسلوب حياة فى المجتمع وفى سلوك أفراده واذا ما استغل الوقت ، فلم يضع سدى ولم يمر كسولا ، فسوف يرتفع الحصار العقلى واليدوى والروحى . وفى عكس ذلك : فان الوقت يزحف صوب التاريخ ليسجل نقطة ضعف فى حضارة المجتمع . فان العملة الذهبية قد توجد بعد أن تضيع ، ولكن لن تستطيع قوة فى العالم أن تحطم دقيقة وقت أو أن تستعيدها اذا مضت .

تحليل الاتجاهات الحضارية المعاصرة :

اذا ما أردنا أن نلقى الأضواء على الحضارات المعاصرة أو الحضارة العالمية المعاصرة ، فاننا سنتناول فى البحث المعطيــات الثقافية والمادية للحضارة • ومن ثم أثر هذه المعطيات على الإنسان والتراب والزمن •

فالمعطيات الثقافية للحضارة هى ما أسميناه أفكار المجتمع المتمثلة بمعتقداته ومعارفه وقيمه التى تتعلق بالأفراد وارتباطاتهم بعالمهم الذى يعيشون فيه • لقد أثرت الحضــارة بأفكار الإنسان المعاصر فمر فى عدة مراحل كانت البيئة عاملا يربط ما بين الانســان وثقافته فاعتمد على أسلوب المحاولة والخطأ . وفى المرحلة الثانية أصبحت الثقافة هى التى تربط بين الانسان وبيئته حيث أوجد المؤسسات لخدمته ، ثم بدأت تتداخل عوامل البيئة والثقافة والانسان لتكوين اتجاهات جديدة وأنماط سلوك اجتماعية جديدة وأيديولوجيات متطورة فوصلت الحيــاة على الكرة الأرضية الى نقطة حرجة تستدعى أن يتغلب الانسان على بيئتــه وأن يوجد الوسائل للسيطرة عليها وضبطها ، فقد تضخمت الثقافة وازدادت البيئة تهديدا ، وأصبح العبء الثقافى ثقيــلا • وأعنى بالعبء الثقافى : الارهاق الاجتماعى الذى يعيق حس الانسان لاتخاذ قرار ، أو موقف معين ، أو عمل محدد ، أو يعالج مشكلة ملحة ، أو ليجد وقتا لنفسه مع نفسه • وإن العبء الثقافى هو ذلك الإرهاق الذى يحول دون وجود توازن فى السلوك الانسانى فتتحول الحياة الى صراع يضطر فيه الانسان لبذل جهوده واستنفاد طاقاته ليجد له مكانا فى ذلك المجتمع الإنسانى المتشابك فيجد نفسه غريبا حائرا حتى فى الإطار الاجتماعى الأساسى وإطار العائلة • ان ظواهر الانقراض أو التلاشى العائلى تبدو حتمية فى عــام الألفين فى مجتمع (ما بعد الصناعى) اذ يلاحــظ التفكك الأسرى فى المجتمعات المتقدمة المعاصرة فى ضعف ارتباط الأبناء بالآباء قبل أن يبلغوا السادسة عشرة ، فيصبح المراهقون مسؤولين عن تصرفاتهم ويزداد عدد الأمهات غير المتزوجات ، وتتضاعف ملاجىء الأطفال وتصبح الممارسات الجنسية حرية شخصية ، ويصبح الشذوذ الجنسى تجربة للتأقلم والتكيف

لحياة القرن الحادى والعشرين كما نلحظ ذلك التفكك فى ايداع الآباء المسنين بيوت العجـزة من قبل أبنائهم وحقنهم بحقن تؤدى الى الموت البطىء دون قلق • لا لذنب اقترفـوه ، إلا لأنهم لم يخططوا لمستقبلهم التقاعدى • فأصبحوا أدوات اقتصـادية بالية استنفدت ، ولم تعد قابلة للانتاج ••

لقد أدت المعطيات الثقافية للحضارة المعاصرة بالمؤسسة الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية ، والتى وجدت منذ عرف الانسان هذه المؤسسات لخدمة الإنسان وتطويره • لقد أدت بها الحضارة المعاصرة إلى معاملة الانسان باعتباره رقما احصائيا : فهو لا يعرف فى عمله الا برقمه ، وهو لا يخاطب المؤسسة الا بذلك الرقم •• وبالتالى أصبح من السهل على تلك المؤسسة أن تلغى ذلك الرقم من تعاملها •• ولم يعد يكلفهـا ذلك أكثر من اشارة بسيطة تودع الحاسب الالكترونى (الكومبيوتر) ليجد نفسه بلا قيمة اقتصادية •

ان نظرة تحليلية لظواهر المجتمعات المعاصرة لتشير الى أن الفقر والبطالة وارتفاع الأسعار والانحطاط البيئى ، والجرائم المنظمـة وغير المنظمة (والخبل أو العزلة الانسانية) ستهزم أية محاولات عادية لتحسين مستقبل الانسان الذى أصبح يعانى عالميا من مشكلات معقدة مثل :

١ ـ المأساة العامة : اذ يعانى الانسان من مشكلة الأرض والهواء والطـاقة وتلوث البيئة •• وأثر هذه المشكلات على مصـادر تغذيته ، وامكانات حياته ونقاء هوائه •

٢ ـ البطالة : اذ لم يعد يجد الانسان فى المجتمع الصناعى الفرصة العادلة ليساهم فى خدمة المجتمع الذى ينتمى اليه •

٣ ـ غلاء الأسعار : حيث لم يعد هدف المجتمع الصناعى هو الحد من ارتفاع الأسـعار بل التفكير فى طرق لزيادة الأجور وهذه يرافقهـا ـ كنتيجة حتمية استمرار ارتفاع الأسعار (وليس أدق من تصوير لهذه

المشكلة من وصف الرئيس الأمريكى السابق « فورد » لها بأنها عدو الشعب الأمريكى رقم ١) •

٤ ــ الخبل والعزلة الفردية : ان القاعدة التى تعتمدها المؤسسات فى المجتمعات المعاصرة هى ان الاهتمام (فن العمل هو العمل)

The Business of Busines is Business

جعلت تلك المجتمعات تعتبر العالم الثالث عالما مصدرا للمواد الخام • مستهلكا لانتاج العالم الصناعى ••• ان مثل هذا الاتجاه قد جعل انسان المجتمع المعاصر يتصرف ويسلك وفق ما تقتضيه متطلبات ذلك الانتاج حتى لو لم يكن ذلك التصرف أو السلوك منسجما مع ذاته وتفكيره فينتهى ذلك الانسان الى خبل وربما عزلة عن مجتمع بمؤسسات أدرك سر كيانها وبقائها • ألا وهو اعتبار الانسان مجرد رقم احصائى • ومن ناحية ثقافية حضارية : فقد أصبح الزمن والتراب (أى المكان) بالعناصر التى لا يستطيع الانسان أن يمارس دوره كانسان دونما اعتبار احصائى للزمن ، واحصاء قياسى للمكان فدخلت إلى تحليلاته العقلية اعتبارات آلية : فهو يعتمد الكومبيوتر مثلا ليتوقع احتياجاته فى عام ٢٠٠٠ مثلا •• أو كيف ستكون خريطة العالم (مثل كتاب ١٩٨٤) أو كيف ستكون الارتباطات الاجتماعية والعائلية عام (مثل كتاب عام ٢٠٠١) ومع أنها توقعات الا أن مجرد ادخالها العقل الألكترونى ، يصبح له تأثير نفسى على هذا الانسان الذى يخطط من وراء معمله المخبرى لمستقبل أجيال فيتأثر السياسى بقراراته السياسية ، والاجتماعى بتطلعاته ، والتربوى بخططه المستقبلية • وربما العسكرى فى أساليب دمار العالم أو فنائه • وإذا ما أضفنا إلى هذا العالم وان كان متباعدا ثقافيا ، فقد أصبح متقاربا جغرافيا ، مما يجعل المكان تحت سيطرة الحضارة المعاصرة خيرها وشرها والأرقام التالية تبين مدى السيطرة التى حققها الانسان على الزمن والمكان فى ميادين المواصلات ونسبة تصاعد وتزايد « السرعة » منذ بدء الانسان حتى العصر الحاضر •

عدد السنوات التى تم فيها الانجاز	السنة	الوسيلة	السرعة (ميل/الساعة)
	ما قبل التاريخ	الاقدام	٣
ملايين	٦٠٠٠ق٠م	الجمل	٨
	١٧٨٤م	العربة والحصان	١٠
٦٥	١٨٢٥م	الآلة البخارية	١٣
٥٨	١٨٨٠م	= السريعة	١٠٠
	١٩٣٨م	الطائرة	٤٠٠
٢٢	١٩٦٠م	الطائرة النفاثة	٤٠٠٠
	١٩٦٠م	الصواريخ	١٨٠٠٠

ويلاحظ من هذا الجدول أن ملايين السنوات قد مرت حتى تصاعدت سرعة المواصلات من ٣ — ١٣ ميلا فى الساعة ، وستين (٦٠) سنة لتصعيد السرعة الى (١٠٠) ميل / الساعة ، وستين (٦٠) أخرى لمضاعفتها أربع مرات بينما ثلاثين سنة فقط لتصعيد السرعة أكثر من (٤٠٠) مرة •

وأما الحديث عن المعطيات المادية (التكنولوجية) فسوف نقتصر فيه على نماذج تعتبر مؤشرات لمؤثراته الخطرة اذا ما استمرت بلا ضوابط ••• وسنتعرض لبعض آراء كتّاب الحضارة المعاصرة فى تحليلاتهم لمستقبل المجتمع الصناعى وتصوراتهم لمجتمع ما بعد المجتمع الصناعى •

يقول Alvin Toffler فى كتابه المقروء الواسع الانتشار Future Shock (صدمة المستقبل) :

ان حضارة هذا المجتمع وبتأثير معطياتها الثقافية والمادية قد أنشأت الشخصيات الغريبة : فالأطفال فى سن الثانية عشرة لم يعودوا أطفالا والكبار فى سن الخمسين يتصرفون وكأنهم أطفال فى الثانية عشرة ، ان هناك أغنياء بتصرفات الفقراء ، ويساريين بثياب اليمين ، ويمينيين بثياب

اليسنار ، وهناك ذوو العقل المبرمج (خبراء الكمبيوتر) المدمنون على المخدرات ونوادى الشذوذ الجنسى ، وشركات الأفلام الجنسية المتطرفة ، ومصمموا الجريمة المنظمة .. ان تأثيرات الثورة التكنولوجية المعاصرة ستكون أعمق من أى تغيير اجتماعى مر بنا كجنس بشرى .

ان التقدم التكنولوجى قد وضع مقاييس جديدة للجنس البشرى فلم يعد سكان المعمورة يقسمون حسب الجنس أو العنصر أو القومية أو الدين أو الأيديولوجية فحسب . بل بعامل الزمن أيضا : فان ٧٠٪ من سكان العالم ما زالوا يعيشون على الطرق البدائية كالصيد والزراعة فهم سكان الماضى . بينما ٢٥٪ زمنيا يعيشون فى مجتمعات صناعية ، فهم سكان الحاضر ، وهم النصف الأول للقرن العشرين صهرتهم الآلة .. والتربية الجماهيرية . وأصبحت حياتهم الزراعية مجرد ذكريات .. وهناك نسبة ضئيلة (٥٪) تسكن مراكز العالم الصناعى فهم ليسوا سكان الماضى وليسوا بسكان الحاضر . انهم سكان المستقبل يخططون لمجتمع ما بعد المجتمع الصناعى الذى سيشهده التاريخ فى بداية القرن الحادى والعشرين بما يخبىء من معطيات مجهولة .

إن البحث عن وسائل جديدة للحياة كحركة الهيبيين ــ مثلا ــ قد تكون تعبيرا عنيفا عن رفض القيم التى فرضتها التكنولوجيا فأصبحوا يصفون الحياة بأنها (تسابق الفئران) ..

وقد ينطوى مفهوم الزمن لدى الآباء والأبناء على هوة متباعدة فى التفكير فالزمن فى نظر الآباء يمر سريعا ، بينما فى نظر الأبناء هو أقل سرعة ، ان وعد الأب الذى يبلغ الخمسين بأن يحصل ابنه البالغ الخامسة عشرة على سيارة بعد سنتين .. فان فترة الـــ٧٣٠ يوما هذه ليست سوى ٤٪ من عمر الأب الاتناجى بينما هى تمثل ١٣٪ من عمر الابن .. كما أن ساعتين من عمر الطفل فى الرابعة من العمر تعادل اثنتى عشرة ساعة من عمر والدته فى الرابعة والعشرين ان هذا الفارق بين جيلين فى الاعتبـــار الزمنى ، ينطبق على شعوب الثقــافات المختلفة .. فإن لكل

ثقافة مفهوما للتحـــرك الزمنى • ويضرب لنا مثلا على ذلك : الروائى الايرانى Esfandlary. فى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية عندما كان الألمان ينون خطا حديديا فى ايران : فقد عانى الطرفان من التناقض فى مفهوم الزمن ، بين ثقافة ألمانية أكثر حرصـــا على الوقت ، وبين ثقافة ايرانية تأخذ الوقت بارتياح وارتخاء •• لدرجة أن تراجع المهندســـون الألمان عن قراراتهم بفصل العمـــال الذين يتخلفون دقائق عن العمل • عندما تبين لهم انهم لن يجدوا بعد فترة سوى الأطفال والنساء للقيـــام بالعمل •• كما يلاحظ الفرق فى استيعاب الزمن حتى لدى شعوب الثقافة الواحـــدة ، فسكان المدن الشمالية الإيطاليـــة لا ينظرون بتقدير لبطء الصقليين وكذلك الحال بالنسبة لسكان الولايات الامريـــكية الشمالية والولايات الأمريكية الجنوبية •

ويستمر Toffler فى تحليله لظواهر المجتمع المعاصر فيصف مجتمع الرحل الجدد New Nomads فان الرغبة فى عدم استقرار الأفراد فى مكان معين الدافع لظاهرة البحث عن عمل من مكان لآخر • حتى ولو كان العمل غير مناسب • واذا عجز المرء عن تحقيق ذلك ، فانه يمتلك السيارة لتحقيق رغباته فى الحركة والتنقل والترحال : ففى دراسة احصائية لرغبات الشباب الأمريكى أفاد ٦٧٪ من الفتيات أن أهم شىء بالنسبة للشاب فى نظرهن هو أن يمتلك السيارة •• كما عبّر عنها الشباب بأنها أساسية لحياتهم •• فالشباب الذى لا يمتلك السيارة •• لن يمتلك الفتاة الصديقة •• فان حجز رخصة السواقة من شاب فى السابعة عشرة من قبل والده بسبب السرعة •• أدت به الى اقتراف جريمة الانتحار • ويمضى Toffler فى تحليله قائلا : ان انسان المجتمع الصناعى لن يشعر بالطمأنينة فى البيت مع أنه يقيم فيه •• فهو كالغريب أو المقيم فى بلد غريب يتحرك من مكان لآخر تلقائيا ، الى أن يصل به الشعور الى أنه غريب فى أرض غريبة •

لقد امتد تأثير مجتمع الغربة ليشمل الوحدة الاجتماعية الأساسية فى المجتمع ــ وهى العائلة ــ فلم يعد الزواج فى مفهوم الجيل التكنولوجى

هو الاستقرار بل أصبح سجنا يحول دون الحصول على المتع المتجددة فى الحياة • فنشأ لدى الجيل المعاصر ما يسمى بالزواج التجريبى • وسرعان ما ينتهى هذا الزواج • ليعود الشباب يبحث عن اطار جديد ينظم فيه علاقاته الجنسية فيختار إطار الحياة الزوجية بلا إنجاب ويلجأ لتبنى طفل وربما شرائه •• وسرعان ما يغادر هذا الطفل والديه •• وربما لضعف روابط الانتماء والولاء •• ثم يتعرض إطار الحياة الزوجية لوفاة أحد الطرفين •• فيلجأ الآخر يبحث عن شريك حياة لتبادل الراحة الجسدية أو المتعة الجنسية بلا مسؤولية وعلى أساس تبادل الحاجات وهو ما يعتبره إنسان ذلك المجتمع بالزواج الحقيقى •

وهناك باحث آخر (ثيودور روزاك Roszak) قدم تحليلا موضوعيا آخر للحضارة المعاصرة التكنولوجية فى كتابين قرأهما معظم الأمريكيين كتاب (حيث تنتهى الأرض) وكتاب (كيف نضع ثقافة مضادة) ، يقول فى كتابه الأول :

« ان التكنولوجيا الحضارية هى الوسيلة العالمية للتبادل والمشاركة الثقافية • ولكننا ونحن أصحابها ، قد أخطأنا استخدام هذه الوسيلة وملكيتها : فقد اعتبرناها رمزا للتفوق الثقافى •• وجعلنا التكنولوجيا نفسها ثقافة بحد ذاتها ينبغى أن تقلد أو تفرض فى أى مكان •• فالحقيقة الملموسة هى أن هذه التكنولوجيا ، تصحبها الكبرياء الغربية قد عجزت أن تنقل قيمنا ، وأيدلوجيتنا ، ومعارفنا للآخرين بكفاءة ، كما فشلت أن تنقل العالم الثالث النامى ليستقى قيما وأيدلوجيات من غير منابع أصوله وجذوره بل وضعت الحواجز لتحول دون وصول الرسالة الغربية وراء التكنولوجيا وفى المجتمعات الشيوعية : نرى سكان العالم ، وقد انتزعت منهم جذورهم •• بما تحتويه من معتقدات وقيم •• ليعيشوا فى ظل نظام لم يكن له فى تاريخهم تطور أو نشوء ــ ولم يكن سر نجاحه ان كان استمراره مؤشر نجاح ، سوى تقمصه لقيم اجتماعية جماهيرية •• ما هى فى الواقع سوى بورجوازية القرن التاسع عشر العلمية بثوب جديد •

ان ما نريده من فلاسفة وعلماء التكنولوجيا الحديثة هو أن ينهضوا الى مستوى العصر .. فيستخدموا المعطيات التكنولوجية كبوتقة تلتقى فيها ثقافات الماضى والحاضر كندين على أسس من احترام المضمون والمحتوى الثقافى لكل منهما ، خصوصا وان القوى المتعارف عليها عالميا هى التبادل الدولى : تجاريا ، وعسكريا ، وتقنيا .. ولن يكون أولئك العلماء غير خبراء التكنولوجيا فهم المعنيون بتصحيح مسيرتها وان نظرة على الظاهرة التقنية فى العالم لتوضح لنا أربعة ظواهر :

١ ـ تسود أمريكا وأوروبا واليابان تقنية تديرها الرأسمالية التى امتزجت بتركيب تلك المجتمعات . فأصبحت جزءا لا يتجزأ من كيانها تتأثر بالمطالب الاجتماعية .

٢ ـ تسود المجتمعات الاشتراكية تقنية عامة تديرها أياد موجهة ومتأثرة بمطالب السلطة السياسية .

٣ ـ تسود المجتمعات النامية تقنية مسرحية نشأت فى تلك المجتمعات نتيجة اصرارها ومحاولاتها مواجهة التخلف واللحاق بالركب الصناعى ولم تستطع التوفيق فى تسيير امكاناتها التقنية بين تقنية تخدم المطالب الاجتماعية وبين تقنية موجهة بالمطالب السياسية .

٤ ـ ان من ظواهر القرن العشرين هو التقنية الاستبدادية وربطها بنظام طبقى مثل النازية أو الستالينية أو نظام الأقلية فى جنوب افريقيا حيث مكنت التقنية تلك الأنظمة من إتقان الاستبداد أو الاستعمار .

إن الخبرة التقنية التى نتحدث عنها ، والتى تستطيع وضع ضوابط للمعطيات التكنولوجية للحضارة وينبغى أن تهدف الى تكوين مجتمع صناعى يتسم بالتحديث المستمر ، والابداع المتجدد ، والتبرير النفسى ، والتخطيط الشامل لتتحقق فى المجتمع الحضارى مطالب الكفاءة ، والضمان الاجتماعى والتنسيق البعيد المدى القوى بين البشرية والامكانات المادية .

ومع ذلك فان المتفحص للمجموع الكلى للقيم الحضارية التى تسود المجتمع الصناعى ، يرى أنها تتضمن قائمة من القيم الايجابية ، وان كانت ترجع فى أصولها وجذورها للتراث الحضارى الانسانى لمختلف الشعوب والأمم ؛ إذ أن تلك القيم جاءت نتيجة لصراع تاريخى طويل فى المجتمع ضد الظلم والقلق فالثقافة الغربية ، قد تأثرت باتجاهات ثلاث : أولها اتجاه الدورة التاريخية التى سادت المرحلة الاغريقية والكلاسيكية ، وثانيها الاتجاه العلمانى الذي فرضته حركة الفصام بين الدين والكنيسة ، وثالثها الاتجاه التقدمى الذى فرضته الثورات الصناعية والعلمية ، وظل تمسك الفكر الغربى بفكرة التقدمية منذ ذلك الحين .

ومن جهة أخرى ، فان أصول الثقافة المادية فى المجتمعات الاشتراكية ترجع الى تصميم ماركس فى القرن التاسع عشر ولم يكن هدف ماركس فى نظريته الثورية عداء المجتمع بقدر ما كان هدفه تخفيف حدة وطأة اللا سامية على بنى قومه اليهود فى أوربا .. لقد اجتهد ماركس فى أنه اذا ما استبدل الدين بأيدلوجية علمانية ، فسيكون مردودها على اليهود مباشرة فى اكتسابهم لحقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل الأنظمة السائدة آنذاك . ويدعم هذا الرأى ما جاء فى كتاب هرتزل « الفكرة الصهيونية » .

(اذا ما خاطبنا الغرب ، فاننا نخاطبهم بمفهوم الليبرالية التقدمية أى التكنولوجيا والعدالة الاجتماعية . أما اذا ما اتجهنا لمخاطبة الشرق فان الاشتراكية هى التى تلقى القبول الاجتماعى لدى أجيالهم ..) فالاشتراكية فى نظر هرتزل يعنى إحدى وسائل خلاص الجنس اليهودى ..

ويتضح من ذلك ، أن المعطيات الثقافية للمجتمعات الاشتراكية يرتكز على فكر بديل للفكر الدينى .

الحاجة لبديل حضارى :

ان هذا الاستعراض والتحليل لمقومات الحضارة المعاصرة ينتهى بنا الى القول :

١ ــ أن المجتمعات المعاصرة ، النامية والمتقدمة والصناعية وتلك التى على أبواب ما بعد الصناعية .. بحاجة الى معالجة موضوعية مستقبلية لأصول وظواهر تركيباتها ومقوماتها .. ولن يكون هذا العلاج بطريقة جزئية أو فرعية ، اذ لابد من أن يكون علاجا شموليا ذا أبعاد ثلاث : البعد الوقائى ــ الذى يمحص الماضى لبناء المستقبل ، ويعالج السلبية التى تظهر من حين لآخر فى تركيب المجتمع ، والبعد التكيفى ــ الذى يمكن المجتمع من التكيف السليم لمواجهة المشكلات الجديدة المتجددة للحضارة والبعد الابداعى ــ الذى يتضمن استقراء المعطيات الحضارية لإيجاد الحلول البديلة المستقبلية .

٢ ــ ان الغزو الفكرى يختلف عن التفاعل الحضارى : فالغزو الفكرى جاء نتيجة للغزو الاستعمارى العالمى الذى مر بمراحل متعددة ، بدأ بالبعثات التبشيرية .. ثم عززته الجيوش الغازية ، ثم تبع ذلك انتقاء نواح فكرية معينة من حضارته قدمها لتحقيق هدفه الأساسى وهو استمرار التخلف .. فترحلت الجيوش الغازية بعد أن تركت أبواقا تخدم أغراضها الفكرية .... أما التفاعل الحضارى فهو جهد ايجابى فى الدراسة والبحث والتمحيص لمعطيات الحضارة الحديثة بغية الاختيار أو الاقتباس أو التكيف مع خصائص وظروف الحضارة المحلية .

٣ ــ ان الظاهرة التى تسود المجتمعات المعاصرة هى ظاهرة التحدى الحضارى فالتحدى الحضارى يحدث قبل التفاعل الحضارى .. ويكون التحدى بين حضارتين مزدهرتين كما هو الحال بين المجتمعات الغربية والشيوعية أو بين حضارتين : احداهما متفوقة

والأخرى متهالكة كما هو الحال بين المجتمعات المتقدمة الصناعية والمجتمعات النامية •

٤ ـــ ان الحصيلة الحضارية الحديثة لجميع المجتمعات يمكن أن نعتبرها حضارة العالم بأسره لا حضارة أمة بعينها أو مجموعة من الأمم وهذا لا يعنى أن ينكر فضل السبق فى العطاء الحضارى العالمى ، فشعوب العالم أسهمت وتسهم فى تغذية هذه الحضـــارة بدرجات متفاوتة •

٥ ـــ ان المعطيات الثقافية للحضارة العالمية تمثل الفكر الانسانى بأكمله ومن الخطأ أن يقف أى مجتمع موقفا سلبيا من ذلك الفكر اذ ينتج عن هذا الموقف السلبى انحرافات نفسية وفكرية خطرة : إما مركب نقص يؤدى الى الخوف والحذر المفرط والرفض الكلى لكل ما عند الآخرين ، وإما شعور التسامى الذى يؤدى الى احتقار ما عند الغير مهما كان على معرفة كثيرة أو قليلة من الحق والخير ، وهنا يأتى دور المجتمع فى أسلوب الأخذ والعطاء وفق أســـس موضوعية •

فالواجب أن تؤخذ العلوم الطبيعية والانسانية والاجتماعيــة بالبحث والتمحيص والفيصل فى ذلك هو مدى مغالبتها وعلميتها •

والمفروض أن يتولى نقد وتمحيص هذه العلوم ، المختصون على أعلى مستوى من الاختصاص •• فيؤدى ذلك الى انماء الفكر الانسانى •• كما يؤدى الى تمييز مقادير الخطأ والصواب فى تلك العلوم والمعارف •

هذه النتائج تستدعى القول أن المجتمع الانسانى بحاجة الى بديل حضارى يحول دون طغيان جانب على آخر من جوانبه ، كما يؤدى الى تصاعد الخط البيانى لعنصر الخير فى الفكر الانسانى ، ويمتلك من الصفات ما يمكنه من استيعاب المعطيات الحضارية المتجددة وتمحيصها وتوظيفها لخدمة الانسانية ، ان هذا البديل المنشـــود يمكن أن نحدد ملامحه بما يلى : ـــ

أ ـ المقومات الحضارية :

ينبغى أن تتوافر الأساسيات والمتغيرات والمكتسبات ، فالأساسيات هى مجمل العقائد والتصورات التى يبنى عليها تركيب المجتمع ، وتكون الأمة والبناء الحضارى ، والمتغيرات هى الفرعيات فى القيم والعادات التى تساعد الأفراد على التأقلم والتكيف مع كل ما يستجد من معطيات الفكر الانسانى والمكتسبات هى الخبرات التكنولوجية (التقنية) التى يكتسبها أفراد المجتمع فى تعرضهم للمعطيات المادية أو التكنولوجية للحضارة العالمية أو الحضارات الأخرى •

٢ ـ التكامل الحضارى :

لابد للمسيرة الحضارية من تكامل فى تركيبها ويمكننا أن نحدد هذا التكامل بتوافر العنصر الروحى ، والعقل الابداعى ، والانتاج المادى • ان هذه العناصر الثلاثة متكاملة تعمل على حفظ التوازن فى المعطيات الحضارية فلا تطغى المعطيات الثقافية على المادية كما لا تشطح كل منها فى مسارات بلا ضوابط

فالعنصر الروحى يحافظ على سمو المعطيات الحضارية والعقل المبدع يتحدى الجمود والتخلف والاعتماد على اجتهادات وضعت لتناسب ظروفا معينة بدلا من استخدامها لوسائل تساعد على الابداع • والانتاج المادى يأتى نتيجة طبيعية وربما حتمية للابداع العقلى •• وان أى خلل فى هذه المعادلة فى التوازن سيؤدى بالمجتمع الى جنوح خطير تجاه عنصر دون العناصر الأخرى •

وفى تصورى أن خير مقياس لهذا التكامل المنشود هو ما رسمه مالك بن نبى أحد مفكرى العصر الحديث فى العالم الاسلامى حينما ذهب الى القول بأن ما يتوجب على المجتمع الرائد أن يكون معدا اعدادا روحيا ليكون قادرا ومؤهلا لقيادة المجتمع الانسانى ، وأن تكون لديه مجموعة المعرفة الانسانية فيتناولها : نقلا ، وتمحيصا ، وتقييما :

(ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) • ويذهب المودودى المفسر المعاصر الكبير فى تحليل ذلك : فالسمع هو نقل المعارف،

والمعلومات • والبصر هو تمحيصها ببصيرة نافذة وعقل واع • والفؤاد هو الذى يتولى اصدار الحكم أى التقويم لما هو خير نافع ، أو ما هو شر ضار ، من هذه المعارف والمعطيات •

البديل الحضـــــــارى :

لقد أصبحت المجتمعات المعاصرة تشعر بالألم الذى صنعته لهـا حضاراتها حتى كان هذا الألم يؤلف جزءا من كيان تلك المجتمعات •• فظهر المفكرون الذين يشيرون الى المنعطفات الخطرة التى تنتظر مستقبل الحضارة العالمية فى كل مجتمع •• ويمكننا القول بأن الحضارات المعاصرة والحضارات الغاربة فى الماضى والحضارات المستقبلية ليست الا عناصر للملحمة الانسانية منذ فجر القرون الى نهاية الزمن ، فهى حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم على الأرض الى آخـر وريث له فيها • انها سلسلة تتمثل فيها جهود الأجيال المتعاقبة فى خطواتها المتصلة فى سبيل الرقى والتقدم •

وان نظرة على هذه السلبية الحضارية لتبين لنا أنها تتضمن حلقات وضاءة من نور تزين كيانها • ان هذه الحلقات تتمثل فى الحقبات التاريخية التى اتيح فيها للتجارب الايمانية أن تأخذ دورها فى ذلك البناء وهى بوادر حضارية كانت توجه جهود البشرية توجيها هادفا الى التحصيل الحضارى•

ان المجتمعات المعاصرة اليوم رغم ضخامة الحضارة العالمية المعاصرة ما زالت تتخبط فى مشكلات معقدة فهى تتعاطى فى مكان (حبة) ضد الجهل وتأخذ فى مكان آخر (قرصا) ضد الاستعمار ، وفى مكان قصى تتناول (عقارا) يشفى من الفقر : فيرفع شعار حقوق الانسان فى مكان يوجد فيه أبشع صور امتهان كرامة الانسان متمثلة بالعدوان والاستبداد والتفرقة العنصرية ، وتبنى المدارس والمؤسسات الثقافية العلمية ، وتقام على موازاتها مؤسسات الجرائم المنظمة •• لقد أصبحت المجتمعـات المعاصرة تنتظر البديل •

ان هذا البديل الحضارى لابد وأن يشتمل على المقومات الحضارية والتكامل الحضارى التى أوردناها قبل قليل لتتوافر فيه أسباب التقدم المتوازن المتمثلة فى : دستـــور خلقى ، وذوق جمالى ، ومنطق علمى ، وصناعة تقنية •

فالدستور الخلقى لا يهتم بالأخلاق من الزاوية الفلســفية بل من الناحية الاجتماعية ، هذه الروح الخلقية تولد مع الحضــارات لتربط الأفراد بعضهم ببعض •

(وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم • انه عزيز حكيم) •

أما التوجيه الجمالى ، فقد عنى به كل من عنوا بالنفس الاجتماعية من علماء الأخلاق ، أمثال الغزالى ، لدراسة الذوق الجمالى وتقديره فى الروح الاجتماعية فبالذوق الجميل الذى ينطبع فيه فكر الفرد ، يجد الإنســـان فى نفسه نزوعا إلى الإحســـان فى العمل وتوخيا للكريم من العادات •

وأما المنطق العملى ، فانه يعنى كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه فلا يكون هناك عمل بغير مقاييس مستمدة من واقع الوسط الاجتماعى واما الصـــناعة التقنية فتعنى الاهتمام بكل الفنون والمهن والقــدرات وتطبيقات العلوم التى تدخل فى مفهوم الصناعة •

القيم الحضارية المنشودة :

ان المجتمع المعاصر اذا ما توافرت له مقومات هذا البديل الحضارى وتكاملت فيه دساتيره الخلقية والجمالية والعلمية والتقنية ، فســوف تسوده قيم ايجابية على مستوى فردى ، وجماعى ، وعالمى •

فالقيم الفردية ستشمل :

١ ــ روح الانجاز والنجاح ــ حيث التنافس الايجابى لانجاز العمل والنجاح لذات الاتقان لا لتحطيم أو تفشيل الجهود المماثلة فى المجتمع (اتقان العمل عبادة) •

٢ ـ روح النشاط والعمل ـ حيث يكون الفرد منتجا نشيطا فى مجتمعه لغايات الانتاج والتقدم الاجتماعى ـ الاقتصادى (فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) و (اليد العليا خير من اليد السفلى) .

٣ ـ روح الكفاءة والفعالية ـ كفاءة الأفراد فى قيامهم بواجباتهم ، وفعالية العلاقات والأنظمة التى تربطهم فى تحقيق تلك الواجبات (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) .

واما القيم الجمعية المنشودة فهى التى تكسب المجتمع المميزات التالية :

١ ـ الالتزام الخلقى ـ فى السلوك العام لمقاييس المجتمع والحكم على الأمور العامة بمقياس الخير والصواب (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .

٢ ـ المساواة ـ فى تعامل أفراد المجتمع دون عوائق الجنس أو اللون أو الدين أو الطبقات لتوفير تكافؤ الفرص نحو تحسين الأوضاع الاجتماعية ـ الاقتصادية « فجميع أفراد المجتمع سواسية فى الحقوق والواجبات والاعتبارات » .

٣ ـ الحرية والديموقراطية المسئولة حيث يمارس المجتمع حرياته العامة ضمن مسئولياته فى معادلة سليمة ما بين الحرية والديمقراطية فلا تستغل أو تطغى احداهما على الأخرى (لا خير فيكم ان لم تقولوها ولا خير فينا ان لم نسمعها ـ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ـ (وأمرهم شورى بينهم) .

٤ ـ التقدم الاجتماعى ـ حيث تطلعات المجتمع لمستقبل أفضل فى التخطيط والبناء فلا يحق عطاؤه ولا يجتر ماضيه اجترارا مؤكدا أهمية المستقبل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

٥ ـ التوازى الفردى ـ الجماعى : حيث تحكم علاقات الفرد بالجماعة معادلة متوازنة لا يطغى جانب منها على الجانب الآخر .

واما القيم ذات الطابع العالمى التى يمدنا بها هذا البديل الحضارى فيمكن أن تشمل :

١ ـــ النزعة الانسانية : حيث الايمان بالجنس البشرى ومساعدته على تلمس طريق ايمانيـــة •• فتنتزع النزعة الوحشـــية فى الجنس البشرى والتى تتمثل اليوم فى الاستعمار والاســتبداد والغزو العســكرى والتمييز العنصرى ولمســاعدة الشعوب على معرفـــة طريق الخير والرسالة الانسانية •

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) •

٢ ـــ القيمة الانسانية للانتاج المادى : حيث يرتبط الإنتاج المـــادى لتوفير السعادة للانسان ، ليس بالاصلاح الاجتماعى ـــ الاقتصادى فحسب بل بتكريس الطمأنينة فى النفس البشرية •

١ ـــ النزعة الانسانية : حيث الايمان بالجنس البشرى ومساعدته على فلا تتحول العلوم الى دين جديد بل وسيلة لارساء قواعد المسيرة الحضارية لخير البشرية •

٤ ـــ النزعة اللاعنصرية فى التفوق الحضارى ـــ حيث تتلاشى فـــكرة أهمية وجـــود عنصرين ـــ كعنصر الرجل الأبيض ، أو الرجل البروليتارى ـــ لتحقيق التقدم الحضارى •

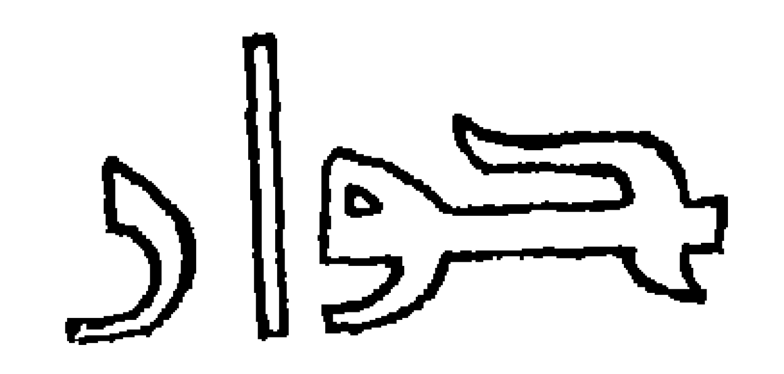
***

REFERENCE

1. Honigmann, J. Understanding Culture, Harper & Row, N.Y. 1963
2. Bennett , led , In Search of Identity, University of Ninnesota Presn,
3. Laudin, H. , Victims of Culture, Charles E. Merrill, Columbus, Ohio, 1973
4. Harris c.c. , The Family, Studies in Sociology : No. 4. , G. Allen, 1969
5. Myer , J The Paychology of Western Culture, Philosophical Lib N Y 1972
6. Bohanian, p. (ed.), Beyond the Frentier, American Museum Sourcebooks in Anthropology 1967
7. Roszak, T. Where The Waste-land Ends, Anchor Books Nn. N. Y. 1968
8. Rozzak, T. , The Making of Counter Culture, Anchor Books N. Y. 1968
9. Teffler. A Future Shock, A Nationalgeneral Co. , N.Y 1971.
10. Bergen, M The Arab World Today, Anchor Books, N.F. 1964
11. Patai, The Arab Mind, Scribners, N.Y. 1975
12. Enan, M. , Ibn Khaldun, His Life and Work, Kashmiri Bazar, Lahore, 1975.
13. Grey, A E. , Class and Personality in Society, Atherton Press, Inc. 1969
14. Now York Times Book : European Socialism Since World War 1 Quadangle Euu s, Chicags 1971

وكالات توزيع المسلم المعاصر

الدولة	الوكيل
جمهورية مصر العربية :	الاهرام ـ ادارة التوزيع شارع الجلاء ـ تلفون ٤٦٤٦٠ القاهرة
الجمهورية العربية الليبية :	الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان تلفون ٤٥٧٧٢ طرابلس ص·ب٩٥٩ تلفون ٩٢٤٣٢ بنغازي ص·ب ٣٢١ تلفون ٢٠١٠٨ سبها ص·ب ٧١٦
الجمهورية التونسية :	الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج ـ ص·ب ٤٤٠ ـ تلفون ٢٥٥٠٠٠ تونس
المملكة العربية السعودية :	مكتبة مكة ص·ب ٦٠ ـ تلفون ٤٢٦٦٨ الخبر ص·ب٤٧٧ ـ تلفون ٢٤٧٥١ جدة باب شريف ص·ب٤٧٢ ـ تلفون ٢٥٠٩٨ الرياض
دولة الكويت :	دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع ص·ب ٢٨٥٧ ـ تلفون ٤٣١٩٨٢ ـ كويت
دولة البحرين :	الشركة العربية للوكالات والتوزيع ص·ب ١٥٦ ـ تلفون ٥٥٧٠٦ ـ المنامة
U.K	MUSLIM WELFARE HOUSE 86 Stapleton Hall Road London N4 4QA Tel. 340 6481 U.K.
DENMARK	ISLAMIC BOOKSHOP Valby Langgade 25 2500 Valby — Kobenhagen — DENMARK
U.S.A.	ISLAMIC BOOK SERVICE 407 N. Ingalls stheet, Ann Arbor, Tel (313) 994 — 5752 MICH. 48104 U.S.A.



لجنة تسجيل وتجميع

يحيى صالح باسلامة (*)

فى نظرته الى الانجازات الايجابية للحركة الاسلامية المعاصرة (العدد الحادى عشر من مجلة المسلم المعاصر) أشار الأخ الدكتور جمال الدين عطية الى الرصيد البشرى الثمين الذى خلفته لنا جهود عشرات الأعوام من (الكوادر العامة التنفيذية) و (الكوادر المتخصصة القيادية) والى رصيد الخبرة والتجربة الضخمة بايجابياتها وسلبياتها ، الى جانب المفاهيم الاسلامية الأصيلة التى قد أصبحت معروفة لدى جميع المسلمين على اختلاف درجاتهم فى الاقتناع والاتباع .

ولمح الدكتور جمال الدين أن صورة العمل الاسلامى المقبل ينبغى أن تختلف عما كانت عليه فى الماضى من عدة نواح (التنظيمات والتشكيلات) ولكنه أكد أن هذه الخبرة والتجربة التى ذكرها لا يجوز أن تظل حبيسة فى صدور وعقول رجال صائرين الى زوال ، فانها ملك للأجيال من بعدهم . فينبغى أن تسجل وتجمع وتكتب وتحلل ، وأن كل تأخير فى هذا المجال سيجعلها أدخل فى كتابة التاريخ منها فى كتابة التجربة الحية المستمرة .

---

* المركز الاسلامى بجنيف ـ سويسرا .

وبالرغم من أن بعض الكتب والمجلات التى تصدر فى شتى الأقطار الاسلامية يمكن أن تفيدنا فى كتابة التجربة التى ناشد اليها الدكتور جمال الدين فانى أرى ضرورة انشاء لجنة للبحث فى هذا الأمر كى نضمن عدم اضاعة خبرة أو تجربة قد لا يدلى بها صاحبها الا بعد مطالبات من مثل هذه اللجنة ، وهذه اللجنة يمكن أن نعتبرها الوسيط بين هؤلاء الرجال أصحاب الخبرة والتجربة وبين الأجيال من بعدهم الذين من حقهم أن يرثوها . ولعلىّ لم أكن مخطئا اذا قلت ان مثل هذه اللجنة لا وجود لها فى الوقت الحاضر . علما بأن هؤلاء الرجال قد بدأ الواحد تلو الآخر يتساقطون فى سلسلة الوفيات .

وكاتب هذه السطور يؤيد الدكتور جمال الدين عطيه فى أن التنظيمات والتشكيلات للعمل الاسلامى المقبل ينبغى أن تختلف عما كانت عليه فى الماضى ، فان المحن المدمدمة والأحداث المتلاحقة والتجارب الماضية قد أسفر عنها نوع من التجمع والتوحيد الى حد كبير ، ووعى أكثر رسوخا من ذى قبل .

« فالكوادر » (الاطارات) الذين انبثقوا فى شتى الأقطار العربية اليوم أوسع صدورا من رجال الأمس ، وكذلك الحال فى أندونيسيا وباكستان وايران وتركيا . بل إننا نجد اليوم كوادر فى الأقطار الأمريكية والأوروبية والأفريقية لم نكن نجدهم بالأمس .

واننا اذا نظرنا الى التنظيمات الجديدة للطلائع الاسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية اليوم لوجدناها أكثر ملاءمة مع ما نحتاجه فى عالمنا المعاصر من أساليب الحياة والنمو والعمل المثمر . على أنهم لا ريب سينتفعون كثيرا بالخبرات والتجارب السابقة لو جمعت ونسقت ودرست .



التفسير الإسلامى للتاريخ

تاليف د / عماد الدين خليل
عرض د / عبد الحليم عويس

---

*

ليس لنا أن تتجاهل ـ ونحن بصدد الحديث عن محاولة الدكتور عماد الدين خليل ـ رصد الخطوط الأساسية فى « التفسير الاسلامى للتاريخ » ـ أن عماد الدين خليل ، قد حاول ـ عبر عديد من الأعمال ـ أن يغرس بعض البذور « التطبيقية » فى هذا الحقل ، قبل أن يتقدم « لتنظير » تفسير اسلامى للتاريخ مستسقى من المصادر الأساسية للتصور الاسلامى •

ومن هنا فنحن نرى أن وجهى المحاولة ، نظريا وتطبيقيا ، لابد أن يؤخذا فى الحسبان ، وكما يجب أن يدرس كتاب « التفسير الاسلامى للتاريخ » يجب أن يدرس فى الكفة الأخرى : دراسة فى السيرة (وبداخله خطوات فى الهجرة والحركة) ، وملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وعماد الدين زنكى (على الرغم من رصفه الأكاديمى) ـ وتهافت العلمانية ، وملاحظة فى التقليد الحضارى ، وربما غيرها من الدراسات الوجيزة أو الطويلة ، مما يمكن أن تكون قد حالت بيننا وبينها ظروف الاضطراب الحضارى الذى يمر به العالم العربى الآن •

***

ونحن مضطرون فى تقديمنا لهــذا العمل الذى نعتبره رائــداً فى مجاله ، ولم تسبقه الا محاولات يغلب فيها « الاخلاص » « والعاطفة » على القدرة التركيزية التى تتطلب عمقا كيفيا ، يوجب استيعاب الوعى « الطولى » بالتاريخ العام ، والوعى المكثف بالتاريخ الاســلامى فى أبعاده المختلفة المستويات : اجتماعيــة واقتصادية وفكرية وسياسية .

نحن مضطرون : الى أن نعبر نحوا من سبعين صفحة من صفحات الكتــاب الذى يقع فى أكثر من عشرين وثلاثمائة صــــفحة من القطع الكبير ..

ففى هذه الصفحات التى وقعت بين « المقدمة التمهيدية » وفصول الكتاب الثلاثة المهمة التى تعالج أبعاد التفسير الاسلامى للتــاريخ فى « الواقعة التاريخية » من جانب ، وفى « المسألة الحضارية » التى تمثل حركة الحياة البشرية فى اطار الحركة الكونية ــ من جانب ثان ... ثم « سقوط الدول والحضارات » كما يرصدها التفسير الاسلامى ــ من جانب ثالث ..

فى هذه الصفحــات السبعين ... يتناول الدكتور عمــاد الدين ــ بالعرض المركز ــ « التفاسير الوضعية الأساسية » وهي فى رأيه ثلاثة :

١ ــ التفسير المثالى ، ويمثله « هيجل » .

٢ ــ التفسير المادى ، ويمثله « كارل ماركس » .

٣ ــ التفسير الحضارى ، ويمثله « أرنولد توينبى » .

ويتتبع الدكتور عرض كل تفسير بنقد يعتمد فيه على معطيــات المسيرة التاريخية وعلى أولويات العقل ، وعلى المصادر التى سبقته لنقد هذه النظريات .

ولكن السؤال الذى يتبادر الى الذهن ــ من الناحية المنهجية ــ ما دمنا بصــــدد تعامل مع التــاريخ : هل يقتضى المنهج التاريخى أن تتصدر هذه التفسيرات « محــاولة رصد ملامح التفسير الإســلامي

للتاريخ » ؟ أم أن المنهج كان يوجب على هذه التفسيرات أن تحتل مكانها فى مؤخرة الدراسة ، وأن يأتى التفسير الاسلامى ــ السابق زمانا على الأقل ــ فى صدر الدراسة ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال نرى أن نلجأ الى الدكتور عمادالدين نفسه فى كتابه ــ موضوع العرض •

إنه يقول فى الصفحة الأولى من المقدمة :

« إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة فى القرآن الكريم ، تلك هى أن مساحة كبيرة فى سوره وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التى تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة ، وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصى (الواقعى) لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التى تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان ، مرورا بمواقف الانسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وبالصيغ (الحضارية) التى لا حصر لها والتى تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب • وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) فى القرآن الكريم ، بحيث إن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية ، أو إشارة سريعة لحدث ما ، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ » فالتفسير الاسلامى حقيقة اذن •• وهو ليس عملا مفتعلا ، أو رد فعل للتفسيرات التى ظهرت مثالية أو مادية •• وهو ــ أيضاً ــ ليس جريا لاهثا وراء قضية احتلت مكانها من الفكر المعاصر • بل أن الدكتور عماد الدين خليل لا يلبث أن يتحدث عن مأخذ خطير يأخذه على كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين الذين وقعوا فى خطأ القول : بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج ، وأنه لا توجد قبل ابن خلدون أية محاولة لتفسير التاريخ • ومن عجب أن ابن خلدون نفسه وقع فى الخطأ ذاته عندما أكد فى مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة فى هذا المجال ، وكان أحرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من اشارات تدل على الطريق •

ومع هذا الاعتراف ــ بالسبق القرآنى فى هذا المجال ــ فان الدكتور عماد الدين ، قد وقع فيما وقع فيه ابن خلدون ، وذلك حين صدر التفسيرات الأخرى ، بما يوهم أنها أسبق ، أو أنها الأصل الذى يقاس عليه مع أن مكانها المنهجى ــ فى رأينا ــ أن تأتى متأخرة ، ولمجرد المقارنة التى تكشف عناصر الاختلاف ، ومظاهر السطحية ، والجزئية الشديدة المحدودة ، التى حفلت بها هذه التفسيرات ، والتى جعلتها أقل (مكانا) ومكانة عن « التفسير الاسلامى للتاريخ » !!

***

وفى المنهج أيضا نلحظ أمرا ، يظهر لأول وهلة ، فان المادة التى اتكأ عليها الدكتور عماد الدين تكاد تنحصر فى « القرآن الكريم » بحيث يبدو وكأنه لا وجود للسنة الشريفة ، مع أن ثمة أحاديث نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية ، واستشرفت آفاق المستقبل البعيد ، مما هو ضرورى التناول عند المعالجة لموضوع « التفسير الاسلامى للتاريخ » فهل ياترى ترك المؤلف الصديق « السنة » وتاريخ المسلمين بشقيه الصحيح والمنحرف عامداً لاعتبار رآه ؟ وما هو هذا الاعتبار ؟

ــ وأنا أرى أن الكتاب الذى بين أيدينا أولى به أن يسمى : « التفسير القرآنى للتاريخ » لأن « التفسير الاسلامى » يجب أن يعطى للسنة الشريفة دوراً أساسياً عند رسم كل أبعاد صورة « التفسير الاسلامى للتاريخ » !!

***

وندلف الآن الى مادة الموضوع .

وفى البداية يطالعنا الدكتور بحديث جيد ومركز عن « الواقعة التاريخية » من الوجهة القرآنية .

« وقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمغطيات التاريخية ، وحدثنا عن الماضى فى جل مساحاته ، لكى ما يلبث أن يخرج لنا تبيان الحكمة من وراء هذه العروض ، والى بلورة عدد من المبادىء الأساسية فى حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدثى لهذه العروض ، تلك المبادىء التى سماها (سننا) ، ودعانا أكثر من مرة الى تأملها واعتماد مدلولاتها فى أعمالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلى .. » .

وعلى امتداد الكتاب الكريم تترى العروض القرآنية مغطية مساحة زمنية تبدأ من آدم وتنتهى بالرسول محمد عليهما الصلاة والسلام .

بل ان بعض الآيات القرآنية لتتجاوز الماضى والحاضر لكى تمد رؤيتها الى المستقبل القريب أو البعيد فى تنبؤات تاريخية يحيطها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية .

ولم يغب عن القرآن أن يوضح الأسباب التى من أجلها تنزلت هذه العروض التاريخية والايحاءات المستقبلية . انها كلها لهدف اثارة الفكر البشرى ودفعه الى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق ، وتقديم خلاصات التجارب البشرية ، وازاحة ستار الغفلة والنسيان فى نفس الانسان ، وتقديم البرهان على الحق الواحد الذى جاء به الأنبياء .

أما النتائج المرادة من هذه العروض : فهى الانسجام عن وعى بالسنن والنواميس المتمخضة عن دراسة التاريخ البشرى والتمعن فى وقائعه وأحداثه ، وفى القرآن الكريم لا تتحدد هذه النواميس ولا تأسر نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة ، بل تمتد مرنة منفتحة شاملة لكى تضم أكبر قدر من الوقائع ، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى ــ فى النهاية ــ الحصيلة النهائية والرموز المكثفة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ . !!

***

أن هذا الركن من أركان بحث التفسير الاسلامى الثلاثة ، قد اعتمد بصورة مركزة وجيدة على القرآن الكريم فى مسألة « الواقعة التاريخية » بحيث نستطيع القول : إن المؤلف قد استعرض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع استعراضا شبه كامل ، وأنه قد أحسن استغلال النص ، وكان يتحرك من داخل النصوص ، بوعى وموضوعية ، جعلت خطى النص والتحليل يسيران فى تآذر ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر .

ومن خلال هذا التتبع القرآنى لمسيرة « الواقعة التاريخية » تكشفت لنا رؤية ومعطيات أبرزها مجموعة من السنن الكونية التى دل القرآن عليها ، خلال حديثه عن الأمم السابقة .

ومنها — أيضا — تلمس لأبعاد المسألة الزمنية فى القرآن وهى تلك المسألة التى تخبطت فيها الآراء الحديثة ، منذ بدايات الدادونية الأولى ، بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعى .

فالقرآن عبر استعمالاته للبعد الزمنى يبين لنا أن الروح الإلهية متجلية فى أصل الابداع ، لكن لا يبين لنا « سر الروح » ولا المدى الزمنى الذى استغرقته عملية ابداع الكون بالنسبة لوعينا البشرى بالزمن ، وهو وعى محدود جدا فى عصرنا . فكيف بالعصور السابقة ؟

لكن الجلى من الآيات القرآنية أن فعل الله كان مباشرا ، وأن هذا الفعل يسخر لتحقيق كلمة الدافعة فى التاريخ قوتين : قوة الطبيعة المادية المنظورة ، وقوة الروح غير المنظورة . وهذه الأخيرة هى الفرق الجوهرى بين التفسير الاسلامى للتاريخ ، والتفسيرات الوضعية .. انها « البعد الغيبى » (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

— ومما نستخلصه من معطيات المسيرة القرآنية فى أطوار « الواقعة التاريخية » — كذلك — أن للانسان دورا أساسيا فى هذه

الواقعة . وهذا الدور هو ما نسميه « بالحرية الانسانية » التى هى فى مداها البعيد جزء من ارادة الله فى خلق الأفعال والأحداث .

وفى اطار هذه الحرية تتحرك قوى العقل والارادة والانفعال والحس والحركة وغيرها من الطاقات التى ركبها الله فى الكائن البشرى ... « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم » وعشرات من الآيات القرآنية التى تؤكد على المستويين الفردى والجماعى هذه الحرية المنسجمة — فى الوقت نفسه — مع الدوائر الكبرى التى تصنعها مشيئة الله وعلمه الواسع المحيط .

وهكذا فان « الواقعة التاريخية » تجىء وفق مدرجات ثلاث ، أولاها : علم الله ومشيئته ، وثانيتها : ارادة الانسان وحركته ، وثالثتها : هى المادة الخام التى يخضعها الانسان لارادته فى اطار منسجم مع سنن الله الكونية التى لا تتخلف ، وفى حركة متوازنة محكمة الترابط بين دور الفرد ودور الجماعة أى بين النبى والأمة ، والبطل والجماهير والقائد والجنود ، وهكذا .

***

وفى القسم الثانى من هذا البحث يعالج الدكتور عماد الدين الدائرة الأوسع : دائرة المهمة التى خلق الانسان — أساسا — لممارستها فى العالم ، والمركز الذى يحتله فى الكون ، إنها « المسألة الحضارية » التى شغلت أذهان ابن خلدون ، وتوينبى ، وهيجل ، وماركس . وخيل للناس أن هؤلاء وحدهم هم الذين أظهروا هذه المسألة للوجود !! مع أننا — كما يقول المؤلف — نستطيع أن نتلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع الى حادثة « خلق آدم » باعتبارها حجر الزاوية فى الوجود البشرى . بل ان « المسألة الحضارية » — ما دمنا نعنى بها الجانب الحضارى الفاعل المبدع المواجه لكتلة العالم الطبيعية والمستجيب لتحديها — تتخطى حادثة آدم الى ما ورائية الوجود الآدمى .. أى الى سائر العمليات التى أريد

بها تهيئــة العالم لاستقبال المخلوق الجديد واحاطة نشــاطاته المختلفة بالضمانات ، بل الى اليوم الذى قال فيه الله للأرض والسماء : (إئتيــا طوعاً أو كرها قالتــا أتينا طائعين) •• وبالتالى ، وفى رأى الدكتــور عماد الدين فان التاريخ الحضارى هو : « كل فعل تمتزج فيه ارادة الله وروحه وكلمته بالمادة فتصوغها كتلا كونية أو نظما طبيعية ••• أو انسانا يتولى خلافة الله فى الأرض لإعمارها » ••

لكن هل يستطيع أى منهج من مناهج فلسفة التاريخ أن يمد الطرف الى هذه المرحلة ؟

ـــ ان التاريخ الحضارى فى القرآن هو وحده القادر على تحقيق هذه الشمولية فى النظرة ، دون أن يعتمد على افتراضات لا جدوى منها •

وحيثما تنقلنا فى أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيــات والمقاطع الخاصة بخلق الكون ، وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أصــيلا بالدور المنتظر الذى بعث الانسان ليلعبه • هذا من جانب ، ومن جانب آخــر بمرحلة تكوين جنين الحياة على الأرض •

أما المسألة الحضارية ــ فى جانبها الإنســانى ــ فترتبط بخلق آدم ، وبالظروف والدلالات والإرهاصات والرموز التى صاحبت لحظة تعيينه خليفة لله فى الأرض ، ومجابهته (بإبليس) الذى يمثل التحدى فى المسألة الحضارية ••

ومن خلال « العمل العقلى والجسدى » فى اتجاه الاصــلاح أو الافساد تتحدد نتيجة الصراع الحضارى بين الانسان والشيطان • وميدان هذا الصراع هو كتلة العالم والطبيعة التى يدور بينها وبين الانســان حوار دائم وأبدى ــ هو يسأل دائمــا ، وهى تتمنع ــ الى حين ــ فى الإجابة •

« وفى القرآن الكريم مئات الآيات والاشارات تنفخ فى الانسان هذا المعنى الحضارى العظيم ، وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يستمر الا بالسعى والكدح والحركة » •

وسواء استمر الحوار بينهما على أساس « النظـر الحسى » أو « الرؤية الداخلية » التى هى البصيرة ، أو « الفكر المجرد » القـائم على البراهين والحجج ، فان الصورة الفذة التى يطرحها القرآن عن ذلك التناغم بين الانسان والطبيعة ، وما وراءها ، وذلك التوازن بين تسخير القوى المادية وتصنيعها وبين عبادة الله سبحانه ، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعملية وهذه المعـادلة الواضحة بين جبروت الانسان وقدرته الفعالة ، وبين نسبيته وضعفه وحاجته الدائمة الى الله ، هذه الصورة الفذة تبقى هى التفسير الوحيد الصحيح لعملية الابـداع الحضارى ، وهى الصورة التى لم يستطع أصحاب المذاهب الوضـعية الوصول الى تصـور أبعادها ، وحصروا أنفسهم فى دائرة محـدودة أسموها « الصراع » أو « تحـاور النقائض » المتقابلة ، أو الجـدل « الديالكتيك » ، مع أن هذه الثنائية — وان صحت لتفسـير بعض الجوانب — فانها — بمفهومها الوضعى — لا تصح لتفسير كل الجوانب .

لكن الصراع — مع ذلك — لا يرفضه الاسلام كمبدأ عام أولى « وكذلك فتنا بعضهم ببعض » « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ويرى الدكتور عماد الدين أن« هذا الصراع » ممتد فى التاريخ « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » — لكن الدكتور المؤلف . الذى عمم هذا المبدأ ، وأخذ على هذه المذاهب حلمها « بيوتوبيا » أو عالم « البروليتاريا » الهادىء ، قد ترك شطرا من الآية « إلا من رحم ربك » ، وهو أيضا عند هذه النقطة قد طبق على عالم الفكر ما طبقه على عالم المادة دون أدنى تفرقة بين المجالين ، ففى رأينا أنه اذا جاز أن يكون الصراع أسـاسا أوليا من أسس التفسير الاسلامى للتاريخ ، فانه لا يجوز أن نستسلم لهذه « القدرية الصراعية » والا فان محاولتنا علاج المسألة الحضارية سيكون من باب « الحتميات » العامة التى تحمـل فى كثير من جوانبها جزئيات مقهورة لا تنضـوى تحتها ..

وأيضا فان كثيرا من جوانب « الواقع » ـ وليس « الفكر » الذى نوافق فيه المؤلف تماما ـ يمكن أن تدخل تناقضاتها فى باب « التعاون » الضرورى لاستمرارية الحياة . فالصيف والشتاء ، والليل والنهار ، والمرأة والرجل ، والسالب والموجب ، والفرد والجماعة : كل هذه الثنائيات وغيرها ثنائيات لا تستطيع الحياة أن تستمر دون وجود أى منها . وبالتالى فهى (متقابلة متعاونة) وليست (متقابلة متصارعة) لأنه لا يستغنى عن أى من المتقابلين فيها ، وليس كذلك الشأن فى المتصارعين !!

***

وتبقى المسألة الثالثة والأخيرة من تلك المسائل التى ركز عليها الدكتور فى تصوره لأبعاد التفسير الاسلامى للتاريخ « سقوط الدول والحضارات » وهى فى رأينا تشبه أن تكون « حقلا تطبيقيا » لمرحلة « التنظير » التى سبقت فى المجالين السابقين : مجال (الواقعة التاريخة) ومجال (المسألة الحضارية) .

وفى هذه النقطة تقف الآية الكريمة « وتلك الأيام نداولها بين الناس » كمعلم رئيسى فى التفسير الاسلامى لأسباب سقوط الدول !!

وهذه « المداولة » تستهدف تمحيص « الجماعات البشرية » واثارة الصراع الدائم بينها ، وخلق التحديات المستمرة ، وذلك لكى يتم ـ فى النهاية ـ إفراز حركة دائمة متجددة فى التاريخ ، ترفض اليأس والهزيمة ، والتشاؤم ، ما دامت الحياة أشبه « بالناعور » الذى يدور فى جميع الاتجاهات .

والفرق الكبير بين الموقف الاسلامى وغيره : هو أنه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ، ما يمكن تسميته « الحتمية التفاؤلية » أى تقرير حتمية الانحلال والسقوط لكى تنشأ دول وتجارب أخرى بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك ، وأولها عملية « التغيير الداخلى » « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ...

وهذا فى اتجاه الصعود •• أما فى اتجاه السقوط فإن للقضية أبعادا سياسية واقتصادية وأخلاقية وعقائدية ••

فالقاعدة والقيادات — على المستوى السياسى — مسئولة « أكابر مجرميها » و « القوم المجرمين » « فاستخف قومه فأطاعوه •• »

— وعلى المستوى الاجتماعى تبدو ظاهرة التناقض بين القول والفعل واحدة من أبرز أسباب السقوط « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » ••

— وللمترفين — وظاهرة الترف بعامة — القدح المعلى فى الدفع بعجلة السقوط خطوات الى الأمام ، كما أن فقدان القيم « الأخلاقية » والعزوف عن « الجهاد » كهدف ايمانى حركى دائم — من أبرز الأسباب فى عملية السقوط •

***

والحق : إنه شوط طويل ، ذلك الذى قطعه الدكتور عماد الدين فى رحلة التفسير الاسلامى للتاريخ ، وهى رحلة ذات أطوال وأعماق هائلة • لازالت تحتاج منه — أكثر من غيره — الى جهود أخرى تمد الطرف — بعد أن هضمت التوجيه القرآنى الحضارى — الى فكر « السنة النبوية » ، وممارسات التاريخ الاسلامى فى خطى الصعود والهبوط ، وحركة الحضارة الاسلامية ، فى عصورها المتحركة ، والساكنة ••

ولست أحجم عن القول بأن ما كتبه المؤلف فى هذه الدراسة يمتاز بالجدة والتكاملية واستغلال النصوص أحسن استغلال • فضلا عن أنه عمل رائد لم يسبقه — فى منهجه وتكامليته وقدرته التحليلية — كتاب آخر فى المكتبة التاريخية الاسلامية •

وقد أجهد الدكتور نفسه ـ مشكورا ـ فى العناية بالنصوص القرآنية ، فلم تند أخطاء الا فى أقل القليل ، من مثل الآية رقم « ١٠ من سورة طه » ص (١٢٠) والآية رقم « ٢ ، ٣ من سورة العنكبوت » ص (٢٤٣) والآية رقم (٤٥ من فاطر) ص (٢٥٨) والآية رقم (٦٩ ، ٧١) من سورة الصافات (ص ٢٣٩ وربما غيرها ، وهى على أية حال أخطاء قليلة جدا بالنسبة لمئات الآيات التى وردت فى الكتاب .

وتعكس (قلتها) كما يعكس الكتاب كله ، الصبر والأناة اللذين تناول بهما المؤلف قضية من أكثر القضايا تأثيرا والحاحا فى عصرنا .

فجزاه الله ـ عن تاريخنا وديننا ـ خير الجزاء .

***

اخبار

* وضعت لجنة مراجعة القوانين لتتناسب مع الشريعة الاسلامية (فى السودان) خطة زمنية وموضوعية تتكون من ثلاثة أشواط ينتهى الأول منها فى ١٩٧٧/١٢/٣١ والثانى فى ١٩٧٨/٤/٣٠ والثالث فى ١٩٧٨/٧/٣١ .

وفيما يلى بيـــان الخطة :

١ ـ يراعى فى هذه الخطة جملة الاعتبارات التالية :

(أ) يسر تطبيق مقتضى الشريعة من حيث قلة الحرج العملى الناشىء من طرح النظم القائمة لئلا يقع ارتباك عظيم أو فساد فى ضرورات حياة الناس ونظام الدولة .

(ب) يسر تناول الأحكام الشرعية ووضع منهـج لتطبيقها من حيث لا يستدعى الأمر اجتهاداً فقهيا كثيراً فى استنباط الأحكام أو دراسة مستفيضـة لظروف الواقع أو مشـقة فى تحضير النظم الادارية التى تحقق تمكين الشريعة فى الواقع .

(ج) مراعاة الرأى العام من حيث الاستجابة العاجلة لتعلقه بالمشهور من الأحكام الشرعية وتبشيره بالأدعى الى التقبل الفورى ومن حيث الحاجة لتقديم التوطئة الارشادية لبعض الأحكام التى يخشى أن تحدث فتنة اذا أخذ بها قبل ترقية فهمهم لحكمة الشرع وتربية استعدادهم لاحتمال وقع تكاليفه •

٢ ـ الترتيب :

(أ) الشوط الأول : ينتهى فى ١٩٧٧/١٢/٣١ :

١ ـ تقنين القواعد الأصولية الفقهية •

٢ ـ رفع الربا عن القروض الاستهلاكية والمعاملات الخاصة •

٣ ـ حظر اشهار الخمور وأسباب تداولها وتعاطيها •

٤ ـ طرح الاجراءات الجنائية العادية على حرمات الانسان وحرياته العامة •

٥ ـ قانون حماية الفضيلة والآداب العامة •

٦ ـ سد مسالك الفساد فى الوظيفة العامة •

٧ ـ تنظيم صندوق الزكاة على أساس طوعى •

(ب) الشوط الثانى : ينتهى فى ١٩٧٨/٤/٣٠ :

١ ـ تكييف التأهيل القانونى نحو الشريعة وتوحيد النظام القضائى ومراجعة نظم المحاماة والافتاء والاحتساب فى ضوء النظم العدلية الاسلامية •

٢ ـ ايجاب الزكاة وتنظيم مواردها ومصارفها وادراجها فى النظام الضريبى العام •

٣ ـ تنظيم القروض والمضاربات التجارية والانتاجية فى اطار مصرف لا ربوى •

٤ ـ مراجعة نظم الأوقاف والمواريث •

٥ ـ معالجة ظواهر البغاء وقطع أسبابه •

٦ ـ حظر ضروب المعاملات المنطوية على الميسر •

(ج) الشوط الثالث : ينتهى فى ١٩٧٨/٧/٣١ :

١ ـ مراجعة القوانين الجنائية وتنظيم وتطبيق الحدود الشرعية •

٢ ـ تقويم النظام الرأسمالى للتأمين وبسط التأمين فى حياة المجتمع كافة •

٣ ـ مراجعة القوانين المدنية العامة •

٤ ـ مراجعة قوانين الاجراءات المدنية والاثبات •

٥ ـ تقويم الآداب والنظم فى الحياة الاجتماعية عامة •

٦ ـ أحكام متفرقة •

الشركة المصرية للطباعة والنشر
رقم الايداع ٦٠٣٩ / ١٩٧٨

Vol 4 No. 13 JANUARY — FEBRUARY — MARCH 1978
ALMUHARRAM — SAFAR — RABI AWWAL 1398

